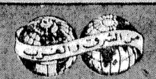
روايات  عالمية

موعد مع ڤينوس

APPOINTMENT WITH VENUS

٥٠ مليما

إهـــــــــداء2006

الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر
الإسكندرية

روايات عالمية

العدد رقم ٤٠٧

موعد مع فينوس

تأليف : جيرار ثايكل

ترجمة : لواء لبيب ميخائيل

الفصل الأول

في حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم العاشر من شهر يوليه عام ١٩٤٠ ، غادرت احدى السفن الحربية الالمانية مرفا «سان بيتر» في «جيرونسي» متخذة طريقها الى جزيرة «أرموراك» الصغيرة ، وفي مقدم السفينة كان الكابتن «هانز وايز» ـ الضابط بآلاى البانزر التاسع الألمانى ـ يقف وهو ينظر بامعان نحو الأفق البعيد حيث الجزيرة التي ستصبح مقرا له بعد أن تولى ـ للمرة الأولى ـ قيادة قوة منفصلة .

كان في حوالى الخامسة والأربعين من عمره ، وكان ـ قبل أن يشترك مع القوات الألمانية في الزحف على بولنـــده ثم بلجيكا وفرنسا ـ يمارس تربية المواشي والدواجن في وستفاليا ، ولذا فقد كان ترحيبه بهذه المهمة الجديدة ـ بعيدا عن المعارك الطاحنة ـ لا يفوقه ترحيب .

وبدأت السفينة تخفض من سرعتها وهى تقترب من الجزيرة ، وأخـــذ وايز يتفحص معالمها مستعينا بالمنظـــار المعظم الذى كان يحمله ـ قبل أن يستدير نحو الرقيب ويبل كيرت فوجل الذى كان يقف بجواره ويقول :

ـ سنصل بعد لحظات قليلة ، أتذكر تعليماتي وأوامرى ؟

ـ نعم يا سيدى ..

ثم شرع ـ كالببغاء يردد هذه التعليمات التى كان يحفظها عن ظهر قلب :

« .. انها رغبة الفوهرر العظيم أن نحسن معاملة من نحكمهم وأن نحترمهم و .. .. و .. .. »

وحين انتهى من ترديد هـــذه التعليمات اجابه القومندان قائلا :

ــ هـــذا صحيح ، تذكر أن سكان هذه الجزيرة سيعاملونك بتحفظ وعداء ، وان واجبك ان تعمل على كسب ثقتهم ومحبتهم

وتوقف فجاة وهو يضع يده على الرشاش الذى كان يحمله الرقيب ، قبل ان يقول :

ــ ولـكن بوسيلة اخرى غير هذه .. بالصبر والمثابرة ، فهذا الشعب يختلف عن البولنديين مثلا ، وله اسلوبه الخاص فى الحياة ولهذا فلن تكون مهمتنا هنا سهلة .

ــ أفهم هذا يا سيدى ..

وفى هذه اللحظة كانت السفينة قد وصلت الى المرسى فى خليج «هافر دى موتى» وحين توقفت آلات السـفينة ، وضعف صوت الأمواج التى كانت تتلاطم حولها ، القت السفينة مرساها بجوار رصيف ممتد كان يقف عليه بعض الأفراد من اهل الجزيرة ، وغادر القومندان السفينة وخلفه الرقيب فوجل واتجها الى حيث كان القوم ينتظرون .

وشرع «القومندان» يتفحص الوجوه الصارمة التى كانت فى انتظاره ، وعلى كل وجه كان يجد اجابة السؤال الذى كان يدور فى ذهنه والذى كان يقلقـه . وتمالك نفســـه وحاول أن يرسم الابتسامة على شـــفتيه ــ وان بدت باهتــة ــ وهو يحيى القوم ويقول :

ــ أيكم «السوزاريان» أمير الجزيرة .. ؟

فتقدم من وســط المجموعة رجـل مسن مهيب الطلعة بادى الوقار يرتدى زيا أسود اللون وتتدلى من سلسلة ساعته صـورة صغيرة للملكة فيكتوريا التى كانت على عرش بريطانيا منذ عشرات

السنين ، وبعد أن حنى رأسه قليلا ـ ردا على تحية القومندان ـ له شرع يقول :

ـ انا راعى كنيسة ارمورال . وفى غياب أميرنا المحبوب اتولى نيابة عنه تصريف الامور هنا .

ـ اذن فسيكون حديثى معك انت ؟

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ ستحتل قوات الرايخ هـذه الجزيرة الآن ـ ومن واجبى أن أنقل اليكم تعليمات القائد العام فى « جيروسى » والتى ستطبق فى الجزيرة من اليوم .

ومن صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة شرع يقرأ ما سطر فيها بصوت عال :

ـ محظور على سكان الجزيرة التجول فيها بين الســاعة السادسة مساء والساعة الســادسة صباحا . يمنع خروج اى قارب أو ســفينة الى عرض البحر . لايصرح لأى فرد بالاقتراب من الشاطىء . حمل السلاح محظور والأسلحة تسـلم للسلطات الألمـانية قبل ظهر اليوم . يوقف بيع المشروبات الروحية ويحذر تناولها فى اى مكان .

وهنا بدر من أحـد الحاضرين ماحمل الـكابتن وايز على أن يرمقه بنظرة حادة . كان يبـدو أن بعض ما جاء فى النشرة اثار هذا الرجل بصفة خاصة ، وكان ما ارتسم على وجه الرجل لا يدع مجالا الى الشك فى أنه لا يطيق بعدا عن الخمر .

ومن النظرة التى بدت على وجهـه وفى عينيه تأكد وايز انه سيلقى منه الـكثير من المتاعب وهو الذى جاء الى الجزيرة حاملا لشعبها الود والسلام وتنبأ بانه سيكون الخميرة التى سـيختمر بها العجين كله ، وتوقع أن يكون هذا السكير البذرة التى قد تنبت رتلا من المناضلين وأفراد الطابور الخامس . لهذا فقد رأى وايز أن يعمل على ان تكون هذه البذور بذور سلام واشراق . ولم ينس رغبة الفوهرر العظيم فى أن يحسن معاملة من يحكمهم . ٦

وعاد يتفحص وجوه القوم وجها بعد وجه ، وحين التقت عيناه ثانية بعينى هذا السكير تصلبت قسمات وجهه وبقى مشدودا اليه لحظات حتى قال :

ــ .. هذا الأمر لا ينطبق على الخمور المخزونة فى المنازل والاكواخ ..

وحينئذ فقط ارتاح وجه الرجل العجوز ، وانفرجت اسارير وايز وهو يحاول ان يستشف تأثير هذا التصريح الجديد فى وجوه القوم .

وانتصب فى وقفته من جديد ، وبصوت حاد قاطع اضاف يقول :

ــ من واجبى أن أحذركم أى مخالفة لهذه التعليمات ــ مهما كانت بسيطة ــ ستواجه فى الحال بالشدة والحزم وارجو أن يكون هذا واضحا تماما ..

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ــ ان الفوهرر العظيم يرغب فى أن نتعاون مع الشعوب التى يحكمها وان ...

ولكنه فوجىء براعى الكنيسة يقاطعه قائلا :

ــ ولكن الفوهرر لا يحكم الدولة التى نحن جزء منها .

فتمالك الكابتن وايز نفسه وكظم غيظه ثم قال :

ــ انها ياصديقى مسألة وقت لا أكثر .. هلا صحبتنى الى قصر الحاكم ؟

الفصل الثاني

من الماضي البعيد حتى عهد الملكة اليزابيث والجزيرة الجرداء لا يسكنها سوى الطيور البحرية ولا يطأ أرضها سوى قراصنة البحار . ولأمر ما وهبت الملكة هذه الجزيرة لمن كان يدعى هوجو فاليز وتوجته -تحت اسم سوزاريان- اميرا عليها هو وذريته من بعده ومضت اربعة قرون وسكان الجزيرة يتوالدون ويعيشون ويموتون .. في سلام ، والسلطة في يد «السوزاريان» . وعلى مدى هذه القرون كان قصر الأمير مفتوحا دائما امام كل من كان يواجه متاعب - ونادرا ما كان يرد خائبا . وكانت ادارة الجزيرة في يد مجلس صغير من ستة افراد يتم انتخابهم من بين سكان الجزيرة - يسمى مجلس البلاط . وكان هذا المجلس يتابع اجتماعاته برياسة « السوزاريان » ليدير شئون الجزيرة وينظم امورها .

وفي ربيع عام ١٩٣٨ استشهد «السوزاريان» في كارثة بحرية حلت بالجزيرة وتولى الحكم بعده ولده لوك - الواسع المعرفة والادراك وان كان صغير السن - فسار على نهج والده واجداده في حكم الجزيرة وشعبها .

***

وذات يوم دقت الطبول عالية تهز ارجاء اوربا .. واستدعى راعي الكنيسة الى القصر ، ودعى مجلس البلاط الى اجتماع عاجل ، وتجمع شعب الجزيرة امام القصر يتنسم الانباء ، وخرج اليهم اميرهم الشاب لوك يعلن انه وكل الى الأب جاك لوشمينت

وأعى الكنيسة حكم الجزيرة حتى يحين الوقت الذى تسكت فيه المدافع عن القتال ، وتدوى مقرونة بفرحة النصر .

ولم تمض ساعات حتى كان الأمير الشاب وشقيقته قد غادرا الجزيرة فى طريقهما الى حيث يملى عليهما الواجب ان يكونا ...

وتتابعت الايام ـ وبدا الاحساس بالخطر يراود سكان الجزيرة وتوالت أنباء الزحف الالمانى الذى كان يهدد دول أوربا وشعوبها ، واستمع القوم ـ وبما للمرة الأولى ـ الى كلمة « دنكرك » ، وأخذوا يرددونها فى أحاديثهم بقلق ظاهر .

وفى اليوم الأول من شهر يولية ظهر سرب من الطائرات الالمانية فى سماء الجزيرة وأخذ يمسح أرضها ـ جيئة وذهابا ـ وهو على ارتفاع منخفض ويشحن جوها بأزيزه المزعج .

ومضت أيام .. والقوم فى خوف ظاهر والنفوس يعصرها القلق .

وفى اليوم العاشر .. كان الراعى يرتدى زيه الكهنوتى الأسود ويضع على راسه قبعته المستديرة ، وفى سكون وصمت تقدم نحو الميناء يتبعه مجلس البلاط ، ووقفوا جميعا ينتظرون السفينة الحربية التى كانت تقترب من الجزيرة . وحين توقفت آلات السفينة ، استدار نحو رفاقه وتكلم ـ للمرة الأولى ـ يناشدهم الصبر ..

***

وعلى ابواب قصر الحاكم توقف الراعى واتجه نحو الكابتن وايز يقول :

ـ هل أصرف أعضاء المجلس ؟

ـ نعم . يحسن أن نناقش بعض الأمور أولا ونحن منفردان .

ـ كما تريد ..

واستدار الراعى نحو الجماعة التى كانت تتبعه فى صمت وسكون وبلغة الباتوا التى يستخدمها سكان الجزيرة ، قال :

ـ عودوا الى دوركم فليس هناك ما تفعلونه الآن . سأحادث هذا الضابط وسنلتقى جميعا فى دارى فى تمام الساعة السادسة مساء ، ولا اطالبكم الآن الا بالصمت .. وبالصبر ..

وفى سكون غادر الرجال القصر .. وتقدم الراعى نحو الباب الداخلى ، وبعد ان فتحه بمفتاح كان يحمله خطا الى الداخل ووقف ينتظر ، وبدت الدهشة واضحة على وجه الكابتن وايز فقد كان يتوقع أن يفتح الراعى الباب وينتظر حتى يدخل هو أولا .. ثم ابتسم الى الرقيب ابتسامة صفراء كمن يقول له ان الأيام كفيلة بأن تغير كل هذه الطباع وبدءوا جولتهم داخل القصر . وأمام احد الأبواب المصنوعة من خشب السنديان توقف الراعى وهو يقول :

ـ لقد شاهدتما كل ما فى القصر ..

ـ ولكنك لم ترنا هذه الحجرة بعد ..

ـ لا اظن أن «السوزاريان» يرحب بدخولكم اليها ..

فصرخ القومندان يقول :

ـ افتح هذا الباب فورا .

ولم يملك الراعى سوى ان يمتثل للأمر ففتح الباب .. ودخل يتبعه القومندان والرقيب . ولم يصدق وايز عينيه وهو يدور فى الحجرة يشاهد ما فيها من أثاث ثمين ويتفحص المائدة المصقولة التى كانت تتوسط الحجرة ، والمقاعد التى رصت حولها ، والثريات المدلاة من سقفها والستر التى تغطى نوافذها ، واستغرق فى تفكير عميق قبل أن يقول :

ـ كيف تخصص حجرة واحدة فقط للزائرين فى مثل هذا القصر ؟

ـ انها غرفة البلاط ياسيدى وليست للزائرين ، ونحن نعدها الآن لاحتفال بعودة السوزاريان .

وشمل الحجرة سكون طويل ، وبقى الكابتن وايز لفترة يحاول

أن يسيطر على ما في نفسه من أحاسيس تكاد تكون ماصقة ..
كيف يجرؤ مثل هذا الرجل على مواجهته بل .. وتحديه ؛ وهو الحاكم بأمره والسيد الذى تجب طاعته . الى أى مدى سيتهاون فيما يفرضه عليه زى الغازى وسلاح المحتل ، لماذا الزموه أن يحسن معاملة مثل هذا الرجل وأن يتحمل تصرفاته وهو الكابتن وايز ، الضابط الألمانى بالاى البانزر التاسع سيد جزيرة ارموران وحاكمها . وفى صوت يكاد يكون ذليلا ، استدار نحو الرقيب فوجل يقول :

ـ سأتخذ من حجرة المائدة مكتبا لى ..

ثم توجه بالحديث نحو الراعى يقول :

ـ سنترك هذه الحجرة كما هى مغلقة .

فأجابه الرجل يقول :

ـ انه لقرار حكيم ياسيدى القومندان .

ـ لا أنتظر تصديقك على قرارى .. بل أطلب طاعتى ..

ثم توقف قليلا قبل أن يقول :

ـ سأستدعيك بعد دقائق لأبلغك تعليماتى الأخ.

ـ حسنا يا سيدى . سأكون فى الانتظار .

وغادر القومندان الحجرة ، وتبعه الراعى فى سكون ثم أغلق الباب وأعاد المفتاح بهدوء الى الحلقة التى كانت فى زناره .

***

كان أمرا غريبا على الراعى أن يقف فى القاعة المظلمة ينتظر اللحظة التى يتكرم فيها القائد الألمانى باستدعائه . كان يشعر بالاجهاد برغم أن النهار لم يكن قد انتصف بعد ، وكان قد خاض المعركة وانتصر فيها ولكنه كان يعلم انها المعركة الأولى وأن هناك معارك أخرى كثيرة عليه أن يتوقعها وأن يواجهها خلال الشهور القادمة .. وربما خلال أعوام . لو أنه فقط .. كان أصغر سنا ، وأوفر شبابا ..

وفجاة فتح باب الحجرة وصاح الرقيب يدعوه للدخول .
وحين توسط الحجرة دعاه القائد الى الجلوس وهو يقول :

ـ ما اسمك ؟

ـ أنا كاهن أرموورال .

ـ اتفضل أن تعرف بوظيفتك دون اسمك ! !

ـ نعم . انها العادة هنا .

ـ ساكون صريحا معك أيها الأب ..

واستغرق القومندان فى التفكير قليلا قبل أن يقول :

ـ صحيح أننا ننشـــد اخلاصكم وتعاونكم واننا سنبذل كل ما فى مقدورنا فى هـــذا السبيل ، ولـكن هنـــاك من الحدود ما لا نستطيع تجاوزها .. سنحترم عاداتكم ولـكننا لن نتحمل العناد أو الاعتراض .

وحاول أن يكظم غيظه وهو يقول :

ـ ما اســمك ؟

ـ جاك لوشمينت .. راعى أرموورال .

ـ شـــكرا .. ارى فى الوقت الحاضر على الأقل أن تبقى فى مكتبك بصفة دائمة .. لقد تلقيت تعليماتى واليـك صورة منهـا تضعها على مدخل الـكنيسة ليراها الجميع .

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ استمع الى ما أقوله بعنـــاية .. جميع الأسلحة واجهزة الراديو تسلم للرقيب فوجل هنا قبل الظهر . ستوضع « تحويلة التليفونات » تحت اشراف رجال الاشارة الألمـان ، ولن يصرح لأى من سكان الجزيرة باستخدام التليفون لأى غرض .. أخيرا أوجه انظارك الى أننى قد لاحظت هذا الصباح انك تحدثت الى رجالك بلغة الباتوا . ولما كان رجالى قد انتخبوا لهذه المهمة لمعرفتهم باللغة الانجليزية .. فاننى أحذركم جميعا الحديث بغيرها .. هـــل هذا واضح ؟

فأجابه الراعى يقول وقد امتلأ غضبا :

ـ لا احب ان اثير المتاعب . ولـكن . ارجو أن يلاحظ سيدى القومندان اننا نستخدم لغتنا القومية وهى اللغة التى يستخدمها سكان الجزيرة منذ قرون .

ـ هناك الـكثير الذى يجب أن يتعلم سكان الجزيرة نسيانه . ولتكن هذه أولها . اننى أحذركم التحدث بلغة الباتوا .

قالها وهو يثق تماما أنه امر سيعجز عن تحقيقه .. وانه لن يستطيع متابعـــة اهل الجــزيرة فى دورهم .. او فى حقولهم ومراعيهم ، ولـكنه وقد اندفع وأسدر هذا الأمر ، فقد كان من العسير عليه أن يتراجع فيه .

ثم تابع تعليماته ونواهيه يقول :

ـ يراعى تنفيذ قيود الاضاءة بدقة وعناية ـ تمنع جميع السفن والقوارب من الخروج الى عـــرض البحـر ويمنع الاقتراب من الشواطىء ، عليك أن تعد أماكن الايواء المناسبة للجنود وأن تستعد لاستقبال غيرهم فى اى وقت ، سنقوم بامداد الجزيرة باحتياجاتها من التعيينات والوقود وعليـــك أن تعد بيـــانا بأسماء السكان واحتياجاتهم المعتادة .

وتوقف لحظات قبـــل أن يقوم الى حيث كان يضع حاجاته ، ويأخذ من بينها خريطة صغيرة للجزيرة ثم يتابع حديثه قائلا :

ـ معى هنا خريطة للجزيرة ، وسأطلب حضورك حين يتوفر لدى الوقت لاستوضح ما فيها على الطبيعة ولاتبادل معك حديثا عن سكان الجزيرة .. عاداتهم وطبـــاعهم ، نظام الحـكم الذى تسيرون عليه .. وغير ذلك ..

واستغرق الراعى فى تفكير عميق ، وابهامه تدور على المائدة يرسم دوائر على الغبار الذى كان يعلوها يكشف عدم انتظامها عن القلق والغضب الذى كان الراعى يحاول كبته ، وبعد لحظات اجاب يقول :

ـ سيدى القومندان .. ماتطلبه ، لا يصعب شرحه وايضاحه وهو هنا ، ينال تقدير كل فرد من أهل الجزيرة بل واحترامه .. بالنسبة الى عاداتنا وطباعنا ، فسترى وتلمس كل شيء بنفسك ، مع الوقت ، حتى تصبح مألوفة لك ، ونظام الحكم فى الجزيرة قد يبدو لك بسيطا متواضعا ولكن قوته تتركز فى احترامنا له وتمسكنا به .

كان فى هذه الكلمات ـ معنى وأسلوبا ـ مارأى القومندان غرابة فى صدوره من هذا الرجل الأعزل ولكنه لم يستطع سوى أن يحنى رأسه وأن يترك الراعى يتابع حديثه قائلا :

ـ أميرنا السوزاريان هو الأب الروحى للجزيرة ، سواء أكان شابا صغيرا أم كهلا مسنا ، ويليه راعى الكنيسة ينوب عنه ويتولى سلطاته فى غيابه وينتخب أعضاء مجلس البلاط من بين سكان الجزيرة .. وقد يكون العضو صيادا أو قد يكون زارعا .

ـ وأين أميركم هذا الآن ؟

ـ لا أدرى تماما ، ولكنه غادرنا هو وشقيقته ليؤديا واجبهما فى المجهود الحربى .

ـ أتعنى أنهما هـربا وتركاك وحدك ـ أنت الرجل المسن ـ تتحمل كل هذه المسئولية هنا ؟

ـ لم يهربا يا سيدى ، لقد ذهبا ليشتركا فى القتال من أجل تحقيق النصر .

ـ حين غادركم الأمير .. هل صحب أحدا غير شقيقته ؟

ـ لقد غادرانا وحدهما .

ـ هل هناك ـ من أفراد أسرته من بقى فى الجزيرة ؟

ـ نعم ...

ـ من ؟

ـ ابن عم الأمير .. مستر ليونيل فاليز .

ـ بلغه تحياتى اذن ، وادعه لمقابلتى فى الثالثة بعد ظهر اليوم »

وبدا الالم واضحا فى صوت الراعى وهو يقول :

ـ أحب أن أوضح أن مستر ليونيـــل ـ برغم انه من أفراد الأسرة ـ فانه لا يشبه الامير بأى صورة من الصـــور ، وارجو الا يخطىء القومندان الحـكم على أميرنا الغـــائب بعــد أن يلتقى بهذا الرجل .

ـ حديثك هذا يزيدنى رغبة فى لقاء مستر ليونيل ، عليه أن يحضر فى الساعة الثالثة »

ـ ولـكنه قد لا يرغب فى ذلك ... »

ـ فى هذه الحالة سأرسل اليه الرقيب فوجل »

الفصل الثالث

كان ليونيل فاليز فى حوالى الثانية والعشرين من عمره ، طويل القامة ، شاحب اللون ، اعتاد أن يقف بالساعات فى مرسمه ـ أو فى المكان الذى يقع عليه اختياره فى أطراف الجزيرة ـ دون ان يستقر على رأى أو ينتظم فى عمل حتى تمر الساعات ويضيع الوقت هباء ، واذا انكب على الرسم .. لاينتج شيئا يلفت الأنظار .

وكان ليونيل واقفا كعادته يمعن فى النظر الى الأفق البعيد عند «بوانت دى جوا» بعد أن توقف تماما عن الرسم ، وتحت قدميه كانت أمواج البحر تداعب صخور الشاطىء فى هدوء ، وفوق رأسه كانت تقف سحابة كأنما سمرت فى مكانها لتحجب عنه اشعة شمس يوليو الحارقة ، ولكنه لم ير فى هذه اللحظة ماحوله من حسن ولم يحس بما فى الأفق من جمال .. لحظة انكسار اشعة الشمس على حافة السحابة .

وفى وقفته هذه لمح رجلا غريبا يقترب منه وحين ميزه تماما ادهشه أن يجده يرتدى الزى العسكرى ويحمل السلاح فى يده ، واذ وصل القادم الى حيث كان ليونيل يقف ـ بادره يقول :

ـ هل انت ليونيل فاليز ؟

ـ نعم .. أنا هو ..

ـ لقد ابلغك الراعى تعليمات الحاكم بالحضور الى مقر قيادته فلماذا تخلفت عن الموعد الذى حدده لك ؟

ـ نعم .. اذكر أن الراعى ذكر شيئا كهذا .. ولكننى خشيت أن يفوتنى جمال هذا المنظر .. كم الساعة الآن ؟

ـ لقد تجاوزت الرابعة .

ـ حسنا . سأكون مستعدا بعد قليل »

ولكنه حين رأى يد الرقيب فوجل تمتد الى زناد الرشاش الذى كان يستعمله أسرع يقول فى صوت واهن يكاد لا يسمع :

ـ هلا أبعدت هذا الشيء .. فقد يكون معمرا ..

ـ انه لكذلك .. فيه مايكفى أن يمزقك أربا .

ـ اذن كن رجلا طيبا وابعده .. فقد ينطلق »

ـ ستأتى معى وفى الحال ..

ـ ولم العجلة .. اظن أن قائدكم سيبقى هنا عدة ايام أخرى؟ أليس كذلك ، لقد انتظرت أسابيع طويلة حتى تجمعت أمامى هذه اللوحة الرائعة وهى ...

فقاطعه فوجل وهو يصرخ ويقول :

ـ أيها السفيه .. لو أنك كنت فى بولندا لقضيت عليك فى الحال ..

ـ سفاهة .. كلا ، ربما شرود ذهن .. لا أدرك .. ولكن دعنى أؤكد لك انالقتل سواء فى بولندا أم بتاجونيا أم فىأى مكان آخر لايمكن أن يكون حلا لأى مشكلة .

ولم يتمالك فوجل نفسه ، ورفع يده الى أعلى وبكل ما فيها من قوة هوى بها على وجه ليونيل ، وفى تشف ظاهر وسخرية قاتلة قال :

ـ لا اخالك ستتردد فى الذهاب معى الآن »

***

ـ لقد وصل « هر فاليز » يا سيدى »

ـ شكرا أيها الرقيب . انه ليس « هر » .. «مستر» فقط » وحين استدار الرقيب فوجل مغادرا الحجرة تمهل القومندان

لحظات وهو ينعم النظر فى وجه ليونيــل ـ ثم اتجه فى خطوات هادئة نحو المــائدة وهو يقول :

ـ مستر فاليز .. هلا تفضلت بالجلوس ؟

ـ شكرا يا سيدى .

ثم ساد السكون لحات قبل أن يقول ليونيل ؟

ـ من الواجب أن اعتذر ياسيدى عن تأخيرى ، كنت ازاول الرسم ، ونحن هنا نخضع لقاعدة تقول ان الوقت خادمنا وليس سيدنا .. صدقنى ياسيدى اذا قلت اننى لم ارغب فى أن أكون فظا هكذا ..

ـ المس هذا .. ولــكن ، ماهذا .. هل اصبت فى حادث ؟

ـ نعم ، انزلقت قدمى فوق الصخور .

ـ هل اطلب لك بعض « البراندى » ؟

ـ كلا .. شكرا يا سيدى .

واستغرق كابتن وايز فى متابعــــة الدخان وهو يتصــد عن سيجارته المشتعلة ـ فى حلقات متتابعة منتظمة ، ثم استدار فجأة نحو ليونيل يقول :

ـ هل أوجه اليك بضعة اسئلة ؟

ـ بكل تأكيد .

ـ لقد قرأت فى ســـــجل الأسرة انك ولدت عام ١٩١٢ وانك الابن الوحيد للميجر جنرال سيرماك فاليز والليدى هلواز (ا.ب) للأدميرال الجيرنون مارلو .. ما المقصود بالحرفين (أ.ب) ؟

ـ الابنة البكر ..

ـ هكذا .. لاحظت ايضا انك تلقيت دراستك فى وينشستر وكلية سان جون وفى اكسفورد .. ماهو التخصص الدراسى الذى تلقيته فى اكسفورد ؟

ـ العصر البيزنطى اليونانى .

ـ هذا جميلٌ .. من المعلومات الاخرى التى حصلت عليها يبدو لى بوضوح أن شخصيتك معقدة ـ برغم ما نلت من شهادات ولا أخفى عليك ان وجودك فى الجزيرة ـ فى هــذه الظروف ـ أدهشنى . من كان مثلك ينتسب الى هذين القائدين الكبيرين .. لايمكن ان يتخلف عن اداء واجبه الوطنى بلا سبب معقول .

ـ لا ارى اى دخل او تأثير لهما فى أمورى الشخصية ، فأنا فنان ياسيدى أبحث عن الجمال حيث يكون لأسجله بفرشاتى ..

ـ الهذا بقيت فى الجزيرة .. بينما بلادك فى حالة حرب ؟ تعوزها كل يد قوية . اننى ـ كجندى ألمانى ـ لا اصــدق ان السلطات البريطانية تتغاضى عن هــذا الامر ، ولا اعتقد ـ مع ما لاسرتك من ماض عسكرى عريق فى خدمة التاج البريطانى ان يتقاعس أى فرد منها عن اداء واجبه نحو بلاده بهذه الصورة .. واتساءل هل من سبب آخر لبقائك ..؟

ـ أى سبب آخر ياسيدى ؟

ـ الخدمة السرية مثلا .

ولم يتمالك ليونيل نفســه واســتغرق فى الضحك قبل ان يقول :

ـ يجب أن تزورنى ياسيدى لتشاهد الأدوات التنكرية التى استخدمها ، وأن ترى حامل اللوحات الذى أرفع عليه «ايريال» جهاز اللاسلــكى .. وأن ...

فقاطعه وايز يقول :

ـ ليس هــذا مجال الضحك او الســخرية .. تذكر فقط النرويج والدانيمرك .. وتذكر هولنده وبلجيكا وحتى فرنســا ، لقد كان هجوم القوات الالمانية حيث لم يكن متوقعا ، وكان للطابور الخامس الألمـانى فضل ملموس ..

ـ لقد أخلجتم تواضعى ياسيدى .

ـ أليست الحقيقة .. ما قلت .. ؟

ـ نعم .. وبكل اسف ، لم آكن أبدا جنديا أو بحارا ، وأؤكد ايضا اننى لم آكن ولن اكون من العملاء . اننى أعيش فى الجزيرة لا لغرض سوى الرسم .. هوايتى وعبادتى . وهذا هو السبب الحقيقى لبقائى هنا .. أقوله بصدق .. وببساطة .

ـ هل اخبرك ماذا يصيب الشخص الذى يتظاهر ـ مثلك ـ بالبساطة فى البلاد التى يحكمها الرايخ .

ـ .. .. ..

ـ امثالك ينقلون الى برلين .. الى سجن الكسندر بلتز وطبقا لقانون هيرمان جورنج الجديد ـ يستلقى السجين على ظهره ويرى بعينى رأسه الجلاد وهو يهوى بالبلطة على رقبته ، فيفصلها بضربة واحدة .

ـ لن يكون هناك مايدعو لهذا ، والآن ياسيدى هل تسمحون لى بالانصراف .

ـ بكل تأكيد ، وسنلتقى كثيرا وارجوا أن تركز جهودك دائما فى الرسم .. وفى الرسم فقط .

ـ ليس لى اى نشاط آخر ياسيدى ، اطمئن الى هذا ..

***

وما أن انصرف ليونيل من الحجره حتى صرخ الكابتن وايز يدعو رقيب فوجل ، وحين وصل بادره يقول :

ـ هل انت الذى سببت له هذه الاصابة ؟

ـ .. ..

ـ هل لطمته مثلا بقبضة يدك ؟

ـ لقـــد ..

ـ اذن فقد لطمته على وجهه ..

ـ لقد كان وقحا ياسيدى ، وحاول أن يعصى أوامرى .

ـ هل فاجأته بمثل هذه اللطمة .. ؟

قالها وهو ينهض واقفا ويستدير نحو الرفيب ويهوى فجاة بيده على وجهه وهو يقول :

ـ أكنت تتوقع هذه مني .. ؟

ـ .. .. ..

ـ امثالك أيها الغبي المتعافي هم الذين يضعون رأس الرايخ العظيم في الوحل . لقد وفرت لهذا البريطاني الفرصة في أن يجادلني أنا الضابط الالماني ، ووضعتني في موقف لا استطيع فيه اجابة ، هذا ما فعلته انت .. واو عدت اليه ثانية ستلقى مصيرك كالكلب .. اغرب عن وجهي ايها الخنزير ..

***

في الموعد المحدد ، توالى وصول اعضاء مجلس البلاط الى منزل الراعي ، وقبل أن يبدءوا الاجتماع ـ انحنت رءوسهم وهم يستمعون الى الصلاة القصيرة التي كان الراعي يتلوها باللغة التي كانوا يستخدمونها هم واجدادهم منذ ان وطئت قدمي جدهم الأول ـ هوجو فاليز ـ ارض الجزيرة لأول مرة .

وختم الراعي صلاته وهو ينعم النظر في وجوه الحاضرين قبل أن تتحول عيناه الى صورة لولده كانت تتوسط الحائط المواجه له ، كان اليم قد ابتلعه مع السفينة الحربية هامبشير في الحرب العالمية الأولى ، ثم اتجه نحو زوجته في رجاء صامت أن تعجل في تقديم كؤوس الروم وشرائح الخبز المقدد بالجبن التي كانت تحملها .

وقبل ان تغادر ماري الحجرة ، نهض الراعي رافعا كاسه وهو يقول :

ـ فلنشرب نخب أميرنا العظيم .

وتعالت أصوات القوم بعده تدعوا للسوزاريان بالسلامة وتسال الله أن يحفظه وأن يرعاه .

وعاد الراعي الى مقعده وهو يقول :

ـ ليس لدى أيها السـادة ما اقوله ممـا تعرفونه ، الحديث بلغتنا ممنوع ، واعتقد أن القائد الالمـانى يعلم جيـدا انه كان من الغباوة أن يصدر مثل هذا الأمر ، ولا أظنه سيعيره اهتماما بعـد الآن . علينا أن نسلم أسلحتنا وأجهزتنا اللاسلكية للسلطات قبل الظهر .. ولقد فكرت كثـيرا فى هذا الأمر واستقر رأيى على ضرورة الاحتفاظ بجهاز واحد منها .. فاذا انعدم اتصالنا بالدولة الأم وبالعالم الخارجي ، فقد يأتى اليوم الذى نصدق فيه الأكاذيب التى سيطلقها الألمان ، لهذا يا اخوانى اخفيت جهـازى داخل آلة الحيـاكة .. وسأسـتمع الى جميع مصـادر الأنباء فى أوقات مختلفة وسأجد الوسيلة التى انقل اليكم بها هذه الأنباء . ولقـد التقى الضابط الالمـانى بالمستر ليونيل بعد ظهر اليوم ، لا ادرى ماذا دار بينهما .. وليس لدينا ما نخشاه من مثل هذا اللقـاء ، سيتابع بابتست عمله فى حظيرة القصر وسيبلغنا انباء أعدائنـا يوما بيوم .

ثم استدار الى الرجل ذى الوجه الأحمر الذى كانت قد اثارته تعليمات وابز هذا الصباح وهو يحرم تناول الخمر فى الجزيرة ـ قبل أن يوجه الحديث اليه ويقول :

ـ فى تآزرنا وتضـافرنا معا القوة التى يخشاها الالمـان .. وحديثى هذا اليك وحـدك ياجين ، فانت رجل مخلص وحـازم ولكنك تضعف أمام الخمر التى قد تؤدى بك .. وبنا جميعا .. لقد شربت نخب السوزاريان الآن وأرجو أن تكون هـــذه الكأس هى الأخيرة وأن تعد بعدم العودة الى الخمر حتى يعود الينـا الأمير وشقيقته .

وبتعاظم نهض جين واقفا ، وبتؤدة شرع يقول :

ـ اقسم لكم بهذا أيها الاخوان .

ـ هذا قسمك امام المجلس يا جين ! .

ـ نعم .. باسم الله وأمام المجلس .

ـ يسعدنى هذا يا جين وانا واثق انك ستعمل بهذا القسم ..

قالها الرامى مبتسما قبل أن يتجه الى المجموعة ويقول :

ــ هل هناك ماتريدون استيضاحه ايها الاخوان ؟

ــ ماذا عن هذا الضابط الالمانى .. ما حكمك عليه ؟

ــ يبدو طيب القلب عزيز النفس .. وعلى كل فالايام هى التى ستكشف لنا عن نيته .

***

فى حجرة المائدة بقصر الحاكم ، كان الكابتن وايز يجلس وحيدا ، وكان الظلام قد اخذ يسود المكان ..

كان يجلس فى مكانه هذا منذ فترة طويلة .. وها هو ذا الآن حتى لا يشعر بضربات الساعة الرتيبة وهى تدوب فى السكون الذى كان يطوى القصر . لقد كان فى هذه اللحظات .. يجنى فى الم ثمار النصر ، الذى كان فى فمه كالعلقم ، والذى جعله يزداد يقينا بأن اللعنة على كل ما هو المانى .. تطارده حتى فى هذه الجزيرة البعيدة ، وانه سيبقى وحيدا .. مكروها ممن يريد أن يكون صديقا لهم .. طالما بقيت هذه اللعنة تطارده ..

الفصل الرابع

عاد البرت راندوز الى مكتبه في وزارة الزراعة والمصايد ـ بلندن ـ بعد أن تناول غداء خفيفا فى أحد مطاعم هوايت هول الصغيرة ، وابتاع نسخة من جريدة الايفننج ستاندرد . كان هذا اليوم هو الرابع عشر من شهر يوليه وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الواحدة وكان الوقت مازال مبكرا يسمح له بقراءة الصحيفة حتى يحين الموعد المحدد لبدء فترة العمل المسائية .

وضاق البيرت بما فى الصحيفة من انباء سياسية وعسكرية وكاد يلقى بالصحيفة الى جانبه حين لمح نبأ صغيرا يكاد يكون ضائعا بين غيره من أنباء أكثر أهمية وأشد لفتا للأنظار . كان النبأ يعلن ـ نقلا عن راديو هامبورج ـ احتلال قوة المانية صغيرة لجزيرة « ارمورال » أصغر الجزر فى بحر الشمال . ربما لم يكن فى هذا الخبر ما يثير اهتمام القارىء العادى ، الذى يقرأ كل يوم ويسمع كل لحظة أنباء سقوط دول وممالك أعظم وأهم من جزيرة «أرمورال» ولكن النبأ ـ بالنسبة الى البيرت هذا كان يعنى الكثير .. فما كاد يقرؤه حتى أسرع يبحث عن أضبارة فى مكتبه كانت تحمل عنوانا « فينوس ـ أرمورال » ، ثم جلس يقلب صفحاتها بحثا عن وثيقة ما ، ما أن وجدها حتى شرع يقرأ ما فيها ويسجل بعض بياناتها ويراجع ما حوته من أرقام ، وسرعان ما غادر الغرفة حاملا فى يده الجريدة والاضبارة ، وبعد لحظات كان يقف أمام روبرت كاروزن رئيسه المباشر والمسئول الأول عن قسم الانتاج الحيوانى بالوزارة .

واذا لم يجد البيرت من رئيسه هذا اهتماما بما كان يحاول أن يوضحه له ، عاد يردد فى لهفة واصرار :

ـ انها «فينوس أرمورال» يا سيدى .

ـ ما دخلها فى الأمر ؟

ـ انها حامل من « مارس » .

ـ هذا جميل .. ولكن هل ترى أن الوقت مناسب الآن لسرد أسماء آلهة الاغريق هذه ؟

ـ انهما بقرة وثور . البقرة في ارمورال والثور نفق ـ بكل أسف ـ فى حادث منذ اسابيع قليلة .

ـ هلا أوضحت لى هذه الطلاسم ؟

ـ منذ عشرات السنين والوزارة تعنى بسلالتين ممتازتين من الأبقــار تشرف على تربيتهما فى جزيرة ارمورال وآخر هاتين السلالتين فينوس ومارس .. وتحمل فينوس الآن أول جنين لها من مارس ، ويؤلمنى أن أقول انه أيضا الأخير .

ـ حسنا .. ستجد فينوس اذن الرعاية الواجبة حتى تضع مولودها فى سلام . اى اسم ستطلقونه عليه ؟

قالها فى سـخرية واضحة وهو يحاول ان يقاوم النوم الذى كان يداعب جفونه .. لقد قضى الليلة الماضية كلها ساهرا يعمل مع جماعات المتطوعين فى اقامة وتحصين الملاجىء وكان فى حاجته الماسة ـ هذه ـ الى النوم ، وفى الارهاق الذى عاناه فى العمل هذا اليوم .. ما أثاره وافقده صوابه عدة مرات ، والآن الآن ـ لسبب لا يدريه ـ يستمع فى هدوء الى قصة « فينوس ومارس » وان كان لا يفهم منها شيئا ، حتى قال البيرت :

ـ قد يسوءك يا سيدى ان تعلم أن الالمان قد احتلوا جزيرة « ارمورال » .

ـ يا الهى .. لم يخبرنى أحد بهذا النبأ المؤلم .. لا احد يخبرنى هنا بشىء سوى ما يتصل بآلهة الاغريق ..

ـ ولهذا يا سيدى ففينوس ومولودها المنتظر أسرى حرب الآن لدى الألمان .. وسيبقيان هناك .. ما لم ...

ـ ما لم ماذا ؟ . لا اظنك تقترح أن احيل هذا الموضوع الى وزارة الحربية .

ـ بالعكس يا سيدى .. فهذا تماما ما جئت من اجله .

الفصل الخامس

بعد ظهر نفس اليوم ــ الرابع عشر من شهر يوليه ــ كان راعي أرمورال يسلك طريقه نحو القصر ، وما أن ولج الباب الكبير حتى استقبله الحارس بتحية رقيقة حاول الراعي أن يردها ولو بمثلها ، ولكنها جاءت باردة.. فالرجل لم ينس ولن ينسى ان هذا الجندي يمثل القوة التي تحتل بلده ..

وتتابع صوت وقع خطواته القوية المنتظمة في ردهة القصر ، ومن احدى الغرف الجانبية انطلق الرقيب فوجل خلف الراعي وهو يصرخ قائلا :

ــ الى أين انت ذاهب ياهذا .. ألم يعلمك أميرك أن تستأذن قبل الدخول ؟

ــ لقد طلب القومندان أن اقابله في تمام الساعة الثالثة .

ــ اذن فانت تحافظ على الموعد تماما ولســت مثل مستر ليونيل ؟

ــ هل ادخل الآن ؟

ــ لا .. انتظر هنا حتى أدعوك ..

وغاب الرقيب فوجل لحظات ، عاد بعدها يدعو الراعي الى الدخول .. وحين توسط الغرفة نهض الكابتن وايز محييا ثم دعاه الى الجلوس وهو يقول :

ــ هل شاركتني احدى السجائر الالمانية ! .

ــ كلا .. شكرا .

ـ اذن تستطيع أن تشعل غليونك اذا شئت »

وسادهما السكون لحظات قبل أن يتابع القومندان حديثه ويقول :

ـ والآن يا صديقي ، ماذا يرى سكان الجزيرة في جنودنا ؟ »

ـ انهم جنودكم على كل حال .. ولقد أجبتم عن السؤال »

ـ كيف ؟ .

ـ هل أسأت الايضاح يا سيدى ؟

وتوقف الراعي قليلا وهو يشعل غليونه ثم تابع حديثه قائلا :

ـ ما من شيء ـ يا سيدى ـ نعيبه على جنودكم ، وهم يتظاهرون بالود والعطف نحو أطفالنا، ربما بوازع من أنفسهم وربما طبقا لسياسة مرسومة لهم حتى يكتسبوا ثقة وتقدير آبائهم ايضا .. لا أدرى .. ولا يهم ، فاننا ـ بما في ذلك الأطفال ايضا ـ لن ننسى ابدا انكم ألمان .. وأن بين جنودكم وبيننا فراغا كبيرا لا يمكن أن يملأ أو يسد وسيبقى هذا الفراغ قائما ما بقيتم هنا ..

ـ امر بقائنا هنا ليس موضوع مناقشة ، لقد أعلن الفوهرر ان نظامنا سيسود العالم الف عام على الاقل .

ـ لقد بلغت من العمر عتيا ياسيدى ، وليس في مقدورى أن أرى ما يحمله المستقبل ولا أن اتنبأ به بالقدر الذى يستطيعه زعيمكم . ولكنني لا أجد فارقا بين الف عام ومائة عام .. فالفراغ سيظل قائما بيننا .

ـ اعتقد ان في مقدورنا معا أن نقيم القنطرة التى تربط ما بيننا .

ـ لن تستطيع هذا ، فسرعان ما ستهب الرياح من الغرب ثانية .

ـ هراء ، فلن تقوم لبريطانيا قائمة بعد اليوم .

ـ اذا كان الأمر ما تقول فهل في مقدورك أن تحقق لأهل الجزيرة مطلبا ؟

ـ هلا أفصحت ؟ »

ـ لقد عز الطعام فى الجزيرة يا سيدى ، وهذا هو الوقت الذى يكثر فيه سمك الماكريل فى مياهنا .. فاذا كانت الحرب كما تقول قد انتهت .. فهل يستطيع رجالنا أن يعودوا الى البحر سعيا وراء رزقهم من هـذا المحصول الوافر .. كما كانوا يفعلون وقت السلم ؟

واستغرق القومندان فى التفكير ، وبدا كمن فوجىء بهذا الملتمس ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ونهض واقفا وهو يقول :

ـ ان من واجبى أن أبلـغ برلين احتياجاتكم الخاصـة من الطعام ، وسندبر لكم مطالبكم منها .. أما الخروج الى البحر .. فمطلب مرفوض »

***

كان « بابتست » فى هذا الوقت ـ يعيش وحيدا فى كوخ صغير بجوار مزرعة الأمير ـ ومنذ أكثر من خمسين عاما من سنوات عمره التى جاوزت السبعين ، وهو يعمل علافا ومربيا لماشية الأمير . وما من بقرة أو ثور ولد فى المزرعة لا يعرف التفاصيل الدقيقة عن نسبه وأوصافه وطباعه .. كان رجلا متدينا لايفوته أبدا أن يختم كل احاديثـه بعبارة اشتهر بها بين القوم توضح مدى ايمانه .. « لو اراد الله .. » . وكان يرى فى وجود الألمان فوق أرض الجزيرة وباء سيزول .. « حين يريد الله .. » . وكان يغادر كوخه كل صباح ويرتقى ربوة عالية تشرف على البحر من بعيد ويتابع بعينيه ما قد تسوقه الرياح من سفن ـ وان كانت بعيدة ـ آملا ـ لو أراد الله ـ أن يكون السوزاريان أو شقيقته على ظهر احداها ..

وذات يوم .. فوجىء وهو يدخل الحظيرة بوجود رجلين يقفان بجوار « فينوس » ـ بقرته المعززة ـ كان أحدهما صديقه القديم راعى الكنيسة وكان الثانى رجلا من جنود الأعداء .. كيف جاء الى هنا ، لماذا سمح له الراعى بالدخول ولماذا صحبه ، ليس من حقه أن يفحص فينوس وأن يتجسس ضرعها .. دوامة عنيفة

طوته ، وغشاء كسا عينيه ، وهو يندفع نحو هذا الغريب ، ولكنه سرعان ما توقف وهدأ حين وقعت عيناه على عيني فينوس وحين رآها ترحب بمقدمه وبحركة لا تكاد تكون آلية رفع قبعته محييا الراعي الذي قال بصوت ضعيف واهن :

ـ هذا « بابتست » يا سيدي القومندان وفي مقدوره الاجابة عما تريد من أسئلة .

فاستدار الضابط الالماني نحو « بابتست » ملقيا عليه نظره فاحصة .. قبل ان يقول :

ـ هل انت الذي ترعى هذه البقرة ؟

ـ نعم ..

ـ كم تبلغ من العمر ؟

ـ ثلاث سنوات واحد عشر شهرا وعشرة ايام ،

قالها بلا تردد وبسرعة وبتاكيد الواثق من نفسه ومما يقول!

ـ ومتى ينتظر أن تضع مولودها ؟

ـ بعد اربعة عشر يوما .

ـ لا اظن هذا .. واحسبك اخطات التقدير بعض الشيء .

وتابع القومندان دورته حول البقرة وسرعان ما اعد آلة التصوير التي كان يحملها ثم شرع يلتقط لها صورا عديدة من أوضاع وزوايا مختلفة « وبابتست » ينظر اليه دهشا ماخوذا .. لا يبدو أن هذا الرجل من رجال المدن .. انه زارع جيد ، اسلوبه في الفحص وتركيزه على أجزاء معينة يلتقط صورها ، تدل دلالة واضحة على انه يعرف ما يفعل وانه يبحث عما يريد ..

وفي صمت استدار « بابتست » نحو الراعي وهمس في اذنه بلغة الباتوا يقول :

ـ سيدي الراعي .. لا أدري لماذا ؟ »

ولكن الراعي سرعان ما همس يقول :

ـ صبرا يا بابتست .. ساعمل على الا تصاب بمكروه »

وكان كابتن وايز قد اتم التقاط الصور التى ارادها ، وعاد يتحسس بيده ظهر البقرة ورقبتها وهو يبتسم ويقول :

ـ لم تكن الجندية مهنتى دائما .. فقد كنت زارعا قبل أن تعلن بريطانيا الحرب علينا وكنت أملك قطعانا من ابقار الفريزايان المشهورة .. ولكن هذه البقرة تفوق فى صفاتها وخواصها وجمالها كل ما اعرفه من أنواع الأبقار وسلالاتها . واظن أنها ستثير انتباه المسئولين فى وزارة الزراعة ببرلين .

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ أرجو أن تصدر تعليماتك ليجمعوا لى السجل الخاص بهذه البقرة وانسابها وبالثور الذى تحمل منه هذا الجنين ، اريد أن احصل على بيانات دقيقة وتفصيلية عنها .. وعن انتاجها السنوى من الألبان ونسبة الدسم فيه .. وما الى ذلك .. هل هذا واضح ؟

ـ نعم يا سيدى ، فهذه البقرة معروفة لكل فرد فى الجزيرة ، ولكن .. هل لى أن اسأل ..

ولكن الكابتن سرعان ما قاطعه يقول :

ـ لا تسأل شيئا أيها الراعى .. لو كان لى أن أجيبك بما عليه قلب الزارع لشعرت بأسى لايجب على الجندى أن يفصح عنه .. ارجو فقط أن تصدر تعليماتك الى هذا الرجل .. ما اسمه ؟

ـ « بابتست » يا سيدى ومعذرة اذا حادثته بلغتنا الوطنية فهو لا يجيد غيرها .

ـ لا بأس اذن .

وسرعان ما استدار الراعى نحو بابتست وانطلق يحدثه والقلق واللهفة باديان على صوته وهو يقول :

ـ يطلب هذا الرجل التفاصيل الكاملة عن البقرة فينوس وانسابها ، وعن الثور مارس ، ونسبة الدسم فى لبنها و .... واذا

اكنت على القدر الذى اعهده فيك من الذكاء فستفهم جيدا ما يجب عليك ان تفعله ..

وارتج الأمر على العجوز واغرورقت عيناه وهو يقول :

ــ ولكننى يا سيدى لا استطيع سوى اقول الصدق .. فماذا سيحدث لفينوس بعدئذ ؟ ..

ــ يالك من غبى ايها الصديق العجوز الطيب .. اعطنى هذه البيانات وساتصرف انا فى الأمر بما يحقق الخير ..

ــ نعم .. لو اراد الله .. سيتحقق الخير .

وحين غادر الراعى والقومندان الحظيرة ، ارتمى العجوز على رقبة البقرة وهو يبكى ويقول :

ــ يريد ان ياخذك الى المانيا .. ولكنك لن تغادرى الجزيرة ابدا .. لن تذهبى الى المانيا .. بل لن تذهبى الى اى مكان ..

الفصل السادس

استيقظ الرائد فالنتيني مورلاند في الســاعة الســابعة من صباح اليوم التاسع من شهر سبتمبر وغادر فراشه في الحجرة التي كان قد استأجرها في فندق براون .

كان قد وصل الى لندن في حوالي الساعة الثامنة من مساء اليوم السابق ولقى ـ لحظة وصوله ـ استقبالا حافلا من رسل هيرمان جورنج الذين كانوا يزورون لندن وضواحيها خلال ساعات الليل ، هذه الزيارة التي تركت آثارها واضحة جلية في كل مكان .

وطرق الســـاقي باب الحجرة ودخـــل حاملا الفطور ونسخة من جريدة التيمس ، وبعد أن حياه تحية الصباح قال :

ـ يالها من ليله ليلاء .

ـ نعم .. لقد كانت ليلة صاخبة ..

ـ صاخبة فقط يا سيدى .. لقـد لقى أكثر من خمسمائة شخص مصرعهم في « وست آند » وحدها .. اليك الصحيفة يا سيدى وبها الكثير من التفاصيل .

وما ان غادر الساقي الحجرة حتى القى فالنتين بالجريده على المائدة وترك الطعام في مكانه ونهض واقفا يبحث عن مرآة يتطلع فيها ليرى آثار الليلة على وجهه وعينيه ولكن رنين جرس التليفون المتوالى لم يتركه لتأملاته .. وما أن رفع السماعة حتى سمع صوتا حادا يقول :

ـ فالنتين ؟ .

ـ نعم .. فالنتين مورلاند .. ومن أنت ؟ .

ـ « العم جورج » .

ـ أسعدتم صباحا ايها « العم جورج » .. الم يغمض لك جفن ؟ .

ـ متى عدت ؟ .

ـ ليلة الأمس .. في وقت مناسب لحضور حفل جورنيج .

ـ وهل .. على ما يرام ؟ .

وسرعان ما اتجهت أنظار فالنتين الى طبنجته التي كان قد تركها على المائدة .. وبدا امام عينيه وجه شاحب لرجل في عمر الزهور يرقد مضرجا بدمائه وسط الطريق المظلم .. فتمالك فالنتين نفسه وبصوت بذل جهدا حتى يجعله مسموعا اجاب يقول :

ـ نعم .. نعم .. على ما يرام تماما ..

ـ هذا جميل .. احسنت صنعا .. حتى اراك ثانية فلدى عمل لك ؟ .

فسقط قلب فالنتين قبل أن يقول بلهفة ظاهرة :

ـ عمل ثان .. مثل الاخير ؟

ـ لا .. ليس مثله تماما .. سانتظرك في تمام العاشرة في الغرفة رقم ٥٧ بالمبنى الرئيسي لوزارة الحرب .

ـ حسنا ايها « العم جورج » .. ساكون هناك في الموعد المحدد ..

***

وقبل العاشرة ـ بدقائق ـ كان فالنتين مورلاند يقدم بطاقته الشخصية لضابط الأمن في وزارة الحرب ، وحين سمح له بالدخول ، سلك طريقا كان يعرفه عبر الممرات الداخلية متجها نحو الحجرة رقم ٥٧ . وما أن طرق بابها حتى سمع من يدعوه الى الدخول ..

كان « العم جورج » يجلس الى مكتبه والى جواره كانت تجلس سيدة متوسطة العمر تسجل ما يمليه عليها من رسائل . وما أن

تحيا فالنتين رئيسه التحية العسكرية المعروفة ، حتى دعاه الى الجلوس ، ثم أشار الى اضبارة كانت على مكتبه وهو يقول :

ـ عليك بقراءة مافى هذه الاضبارة حتى أنجز ما لدى من عمل عاجل .

والتقط فالنتين الاضبارة وشرع يقلب صفحاتها ويتمحص ما فيها .. وحاول جاهدا ان يربط ما بين بقرة حلوب وبين وزارة الحرب ، وبصفة خاصة الغرفة ٥٧ والعم جورج .. ولكنه لم يهتد الى شيء .

وانتقلت أنظار فالنتين الى «العم جورج » تحاول أن تستشف من الامر شيئا .. كم من أسرار تختفى فى صدر هذا الرجل .. انه يعمل معه منذ شهور طويلة .. وما زال لا يعرف عنه حتى اسمه الحقيقى .. لقد قيل عنه الكثير ولكن الحقيقة مازالت مختفية وراء « العم جورج » حتى توقيعه الرسمى الذى يوقعه على اخطر الوثائق لا يزيد عن هاتين الكلمتين .

كان فالنتين قد التقى بالعم جورج ، فى منزل أحد الأصدقاء فى بدء ازمة العلاقات بين بريطانيا والمانيا .. وفى هذا اليوم قدمه الصديق باسم « العم جورج » ودار الحديث بينهما واستطاع العم جورج خلاله ان يختبر فالنتين . واستطاع فالنتين ـ دون أن يدرى من الأمر شيئا ـ أن يحوز اعجاب العم جورج وتقديره ، وانتهت السهرة بدعوة من العم جورج وجهها الى فالنتين .. للقاء آخر ..

ومن هذا التاريخ وحقيبة فالنتين تحمل اسماء فنادق عديدة فى ستوكهولم ومدريد وروما وباريس وبروكسل وغيرها .

واستيقظ فالنتين من أفكاره فجأة على صوت « العم جورج » وهو يوجه حديثه الى سكرتيرته قائلا :

ـ احملى هذه الرسائل فى الحال الى قلم الشفرة .

وما ان غادرت الحجرة حتى بادر فالنتين بالحديث قائلا :

ـ اذن فقد تخلصت من صديقنا العزيز ..

ـ نعم .. وقد اعددت لك تقريرا وافيا ..

والتقط العم جورج التقرير من يده والقاه أمامه بلا اكتراث وهو يقول :

ـ هل قرات هذه الاضبارة ؟

ـ نعم ..

ـ ما رايك فيها ؟ .

ـ ممتعة للغاية ..

ـ كيف ؟ .

ـ قد اجد صعوبة فى الايضاح .. ولكن .. فى هذه الأيام التى تدور فيها المعارك الطاحنة ويلقى فيها البعض مصرعهم فى الظلام .. أجد اهتماما يثير دهشتى بآلهة الاغريق هذه .. واين ؟ .. فى وزارة الحرب .. بل فى الغرفة ٥٧ .. السبت معى فى هذا يا سيدى ؟ .

ـ هل اخبرك برايى انا فى هذا الوضوع ؟

ـ لا داعى يا سيدى .. فانا اعرفه تماما .

ـ هل ستؤدى هذه المهمة اذن ؟ .

ـ بكل ارتياح .

ـ كنت اخشى الا تقبل .

ـ ولماذا لا اقبل ؟ . ان فيها ما يثير ...

ثم توقف قليلا واستغرق فى التفكير قبل ان يقول :

ـ ما هى المساعدات التى ساتلقاها ؟

ـ القليل بكل اسف .. ماذا تريد ؟ .

ـ جهاز لاسلكى بعيد المدى وعامل ارسال من الدرجة الأولى اعرفه انا تماما ، رقيب يدعى الكسندر فوربس .. ثم اريد الكثير من المعلومات والبيانات عن الجزيرة واهلها .

ـ مصدرك لهذه المعلومات سيكون فرعا انشىء منذ شهور قليلة



الى ادارة المخابرات البحرية فى اكسفورد ، وقد دبرنا الأمر معهم وستلتقى بهم بعد ظهر اليوم وستنقلك الى هناك سيارة تقودها فتاة من المجندات كانت تقيم ـ قبل بدء الحرب ـ فى جزيرة ارموزال ».

ـ كم أكره أن تقود امرأة سيارة أركبها ..»

ـ هذه حقيقة ، ولكن الحقيقة الاخرى التى لم تعرفها بعد ان هذه الفتاة ستصحبك فى مهمتك .. يحسن أن تسرع الى ادارة العمليات المشتركة لدراسة التفاصيل الخاصة بهذه المهمة على أن تعود الى هنا قبل الساعة الثانية .. هل تحتاج الى نقود ؟

ـ كلا يا سـيدى .. فما من حاجة اليها ، ولا محل لاستخدامها .»

***

قبيل غروب شمس اليوم التاسع عشر من شهر ستمبر .. كان الراعى يسلك طريقه الى حيث كان يقيم القومندان فى القصر ، وكان الكابتن وايز ـ فى هذه اللحظات ـ يشعر بسعادة وارفة انعكست آثارها عليه وهو يستقبل الراعى ، واذ كان الراعى ـ كعادته ـ متحفظا فى حديثه وتصرفاته ، فقد تمالك القومندان أعصابه وهو يردد فى نفسه أن الأيام كفيلة بأن تغير من طباع هذا الرجل العنيد ..

وبدأ القومندان الحديث قائلا :

ـ تلقيت اليوم ردا على رسالتى الى برلين .. ولعلك تذكر أننى ارسلت تقريرا عن البقرة فينوس الى وزارة الزراعة .

ـ نعم اذكر هذا يا سيدى .

ـ لقد رأت السلطات المختصة أن تنقل هذه البقرة الى برلين لتضع مولودها هناك حيث تتوفر لها الرعاية الكاملة . وستضيف السلطات ثمنها الى حساب السوزاريان الغائب .

ـ ولكن السوزاريان ليس فى حاجة الى الثمن ولا يرغب فى

يبعها ولا فى نقلها الى المانيا . يريد السوزاريان أن تبقى هنا .. معنا ولخيرنا ..

ـ لا اتكلم بلغتين ، بل بلغة واحدة .. واضحة ، ستذهب افينوس الى المانيا ..

ـ من واجبى اذن ياسيدى ان احذركم المتاعب التى ستحدث فى الجزيرة اذا سرقتم .. اقصد اذا اخذتم فينوس ..

ـ هل ذكرت شيئا عن السرقة ؟ . هل ما سمعته صحيح ولم تخنى اذناى ؟ .

ـ كانت اول ماتبادر الى ذهنى .. فنحن تنقصنا اللباقة فى الحديث .. اذا استولى شخص بالسرقة او بالقوة على ممتلكات غيره فنحن هنا فى الجزيرة ندعوه لصا .. وانا مثلك يا سيدى القومندان .. لا اتحدث بلغتين ، اذا حاولت أن تسرق البقرة فستجد الجزيرة كلها على قدم ضدك .

وحاول الكابتن وايز أن يبدو هادئا وقال وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ اذن فستقاوم جزيرة ارموران .. الرايخ الثالث .. يا للعجب .. ناموس يقاوم فيلا ..

ـ نردد فى بلادنا مثلا يقول « صبرا أيها الناموس فالليل طويل » . لا أحب لشعب ارموران أن يقاسى من اجل حيوان ، لذا أطلب منك أن تترك فينوس حيث هى .. حتى نستطيع أن نعيش فى سلام ، فمكانها فى الجزيرة وليس فى المانيا ..

فانتفض القومندان وقد تقلص وجهه وهو يقول :

ـ ستبقى فينوس تحت رعايتى واشرافى الى أن يحين موعد نقلها الى برلين .. انتهت المقابلة يا سيدى الراعى .

الفصل السابع

وفي تمام الساعة الثانية ، كان فالنتين مورلاند قد عاد الى مكتب « العم جورج » فبادره هذا بقوله :

ـ حسنا .. هل وجدت الأمر مقبولا .

ـ نعم .. بقليل من الحظ .. نحقق نجاحا أكيدا »

ـ لست فى حاجة الى الحظ .. اليك جواز مرورك »

قالها وهو يقدم اليه الاضبارة وقد كتب عليها « العملية فينوس » ـ « الى الرائد فالنتين مورلاند للتنفيذ » .

وتوقف الحديث بين الاثنين حين سمعا طرقا خفيفا على باب الحجرة ، وحين اذن العم جورج للطارق بالدخول انفرج الباب عن سيده صغيرة السن ترتدى زى المجندات وتقدمت الى حيث كان « العم جورج » يجلس وبعد أن ادت التحية العسكرية قالت :

ـ فاليز يا سيدى .. من نورث ويلز ..

ـ السيدة التى كانت تعيش فى ارمورال ؟

ـ نعم يا سيدى »

ـ هل تسلمت « عربة قيادة » .. ؟

ـ نعم يا سيدى »

ـ حسنا .. ستصحبين هذا الضابط الى اكسفورد الآن فى هذه العربة ، وستكونين تحت امرته حتى ابلغك تعليماتى الجديدة »

ـ حسنا يا سيدى ، وساكون فى الانتظار أمام مدخل الدار »

وما ان غادرت الحجرة حتى تابع « العم جورج » حديثه قائلا :

ـ اخطرت اكسفورد لينتظروك ، وعليك أن تستخلص من هذه الصغيرة كل ما تستطيع فى اثناء الطريق .

ـ تاكد اننى سافعل ..

***

ما ان لمحت السائقة فالنتين واقفا امام مبنى وزارة الحرب فى ميدان هوايتهول حتى أسرعت تغـادر مقعد القيـادة ، واذ رآها ـ هو ـ تقدم فى خطوات ثابتة نحو العربة فحيته وهى تفتح الباب الخلفى للعربة فابتسم وهو يقول :

ـ اتمانعين اذا جلست على المقعد الأمامى .. الى جوارك .. ان الجلوس فى المقعد الخلفى يشعرنى بالغثيان .

ـ من الغريب ان يكون هذا شعور كل من يركب معى .. تفضل يا سيدى بالجلوس أين شئت .

وجلس فالنتين فى المقعد الأمامى وهو يشـعر بالخجل .. ليس من نفسه ومن تصرفه .. ولكن .. من الظروف التى حملته على أن يكذب هذه الـكذبة البيضاء ليكون قريبا منها وليبادلها الحديث الذى فرض عليه .

ـ اريد الذهاب الى اكسفورد ، المعهد الجغرافى .

ـ اخبرنى « العم جورج » انك ذاهب الى اكسفورد .

ـ اتعرفين الطريق ؟ .

ـ أيهما يا سيدى .. طريق هنلى الجميل ام طريق وايكومب القصير ؟ .

ـ طريق وايكومب اذا سمحت .

ـ حسنا يا سيدى .

وتوالت معالم الطريق . « قصر باكنجهام » . « هوايت سيتى » . « ويسترن أفينو » . جسر « جيرارد » . ووصلا الى « بيكونسفيلد » قبل ان يبدأ الحديث معها ويقول :

ـ الاحظ انك تجيدين القيادة ..

ـ حظ المبتدئة يا سيدى .. فلم أشاهد حتى آلة السيارة قبل ان التحق بالجيش .

ـ ولماذا ؟ .

ـ كنت اعيش فى جزيرة ارموورال ، ونحن هناك نعيش على الفطرة تقريبا ولا نملك ما توفره المدنية لغيرنا .

وهكذا ـ ودون أن تدرى ـ فتحت امامه مجال الحديث الذى كان يريده ويترقبه ، فابتسم وهو يقول :

ـ ارموورال .. أليست واحدة من جزر الشمال الخمس ؟ .

ـ نعم .. مازلت ولا شك تذكر اسماءها من عهد الدراسة .. «جيرس» ، «جورنسى» ، «الدرنى» ، «سارك» . «وأرموورال» .

ـ نعم اذكرها بلا شك .. كما اذكر زوجات هنرى الثامن تماما ..

ـ نعم يا سيدى .. «كاترين اوف اراجون» و «آن بولين» ...

ولكنه سرعان ما قاطعها وهو يقول ضاحكا :

ـ اعرف التاريخ يا آنستى العزيزة ، ولكننى اليوم احتاج كثيرا الى دروس الجغرافيا .. حدثينى اذن عن ارموورال .

واستضاء وجهها وهى تردد اسم الجزيرة فى نغم عذب ، وشرعت فى صوت حالم تحدثه عن الجزيرة .. وطنها الغالى وارض قومها وعشيرتها ومرقد آبائها واجدادها .. ثم قالت :

ـ انها جزيرة صغيرة لا تزيد عن الميلين طولا وعرضا ، تبدو للناظر من البحر كالمهجورة ولكن سكانها يزيدون على الثلثمائة يحكمهم السوزاريان أمير الجزيرة يعاونه مجلس للبلاط منتخب من ستة من أفراد الشعب بين صياد أو مزارع ، لنا عاداتنا ومعتقداتنا التى قد تبدو لكم شاذة غير مألوفة .. فمثلا يقولون انه فى يوم محدد من ايام السنة تتحول مياه الآبار فى الجزيرة الى دماء قانية ، وحتى الجزيرة نفسها .. تبدو كالساحرة .. اذا لم ترض عن زائر أو غضبت عليه استعانت عليه بالرياح تقذفه من فوق الصخور

الى البحر . وفى الجزيرة ربوة عالية حادة يصعب تسلقها وتسمى « كولين دى موتو » وفى شمال الجزيرة هضبة صخرية ممتدة تدعى « كولو اردى ديابل » (ممر الشيطان) وهى مقبرة لعدد من السفن »

ـ حديثك شائق للغاية ..

ـ جغرافيا .. أم نباتيا .. أم تاريخيا ؟ »

فضحك وهو يقول :

ـ بل افضل الجغرافى ..

ـ فى حديثك معى عن أرمورال متعة قد لا تعلم مداها ..»

ـ يسعدنى أن تحققى هذه المتعة ..

ـ سواحل الجزيرة صخرية مرتفعة ، وبها ميناء واحد صغير ، ومع ذلك فاننى أعرف أكثر من عشرين مرسى صغـــيرا فى أماكن متفرقة .. يتحدث أهل الجزيرة بلغة الباتوا أصلا وان كانت اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية ».

ـ وأيهما تتحدثين أنت ؟ .

ـ مع قومى أتحدث بلغتهم بلا شك .»

وتوقفت قليلا قبل أن تقول :

ـ أهناك ما تريد أن أحدثك عنه ! ».

ـ نعم .. حدثينى عن مكان يدعى « لابوانت دى جوا » .. أتعرفينه ؟ .

ـ أعرفه ؟ . ياله من سؤال .. لقد كانت هذه المنطقة مرتع طفولتى ـ أنا وابن عمى ليونيل وكنا نسبح هناك كثيرا ، يقودك اليها طريق جميل يبدأ من قصر الحاكم ، وكان هناك مرسى صغير ولكنه لايستخدم الآن برغم مياهه العميقة ..

واستدارت فجأة تسأله :

ـ ما سبب اهتمامك بهذا المكان ؟ »

وتجاهل فالنتين السؤال وهو يقول :

ـ هل ينتهى الطريق بميل حاد الى البحر ؟ »

ـ لا .. ليس كثيرا فالطريق صخرى وأستطيع السير فيه معصوبة العينين .. فى ليلة حالكة الظلام ..

ـ أفى مقدورك هذا دون أن تسقطى ويدق عنقك ؟

ـ لا ودون حتى أن تنزلق قدمى .

وسادهما صمت قصير قبل أن يتابع فالنتين حديثه قائلا :

ـ متى هجرت الجزيرة ؟

ـ من قال اننى هجرتها ، لقد غادرتها فقط مع شقيقى الى لندن بعد اعلان الحرب على المانيا .

ـ امازال والداك فى الجزيرة ؟

ـ لقد توفيت والدتى بعد مولدى بشهور ، واستشهد والدى فى حادث منذ اكثر من عام ، ولم يبق من الاسرة سوانا .. انا وشقيقى .

ولكنها سرعان ما تداركت القول :

ـ وابن عمى ايضا .. وهو يقيم فى الجزيرة الآن ، انه زميل طفولتى الذى كنت العب معه فى «بوانت دى جوا» وهو فنان متعته فى الرسم فقط ، وله اسلوبه الخاص فى الحياة ونظرته المختلفة عنا للأمور .

ـ حدثينى عن ابن عمك هذا .

ـ لم أره ولم اسمع عنه منذ غادرت الجزيرة .. لقد وصلنا ياسيدى ، هاهى ذى اكسفورد تطل علينا .

ـ لا بأس اذن ، هل نتابع الحديث فى العودة ؟

ـ كما تريد يا سيدى ..

ـ سأغيب حوالى الساعة ، هل ترغبين فى تناول بعض المرطبات حتى يحين موعد العودة فى تمام الساعة الخامسة .

وتوقف قليلا بعد ان غادر العربة قبل ان يقول :

ـ اتدرين اننى لا اعرف اسمك حتى الآن ..

ـ فاليز ياسيدى .. نيكول فاليز ..

ـ مس فاليز .. الى الخامسة اذن ..

***

ما أن دخل فالنتين الحجرة التى كان ينتظره فيها الكولونيل نايجل دان مدير شعبة المخابرات البحرية حتى أسرعت السكرتيرة تطلب من عامل التليفون أن يوصلها بوزارة الحرب الغرفة ٥٧ .. ولم تمض لحظات حتى كانت تحادث «العم جورج» وتقول :

ـ لقد وصل رجالك الآن .. هل أصفه لك .. انه رائد يرتدى الزى العسكرى ويحمل العلامة المعدنية للخدمة العامة فى حوالى الثامنة والعشرين حليق الذقن ، أشقر الشعر ، ازرق العينين يعلو حاجبه الأيسر جرح عميق .. اهو نفس الرجل يا سيدى ؟ شكرا ايها «العم جورج» والى اللقاء .

وما ان أنهت حديثها هذا حتى اتصلت برئيسها «بالتليتوك» تقول :

ـ لقد راجعت نسخة التقرير الذى معك ياسيدى ، وتأكدت انها صحيحة .

ـ شكرا ..

وعندئذ فقط .. بدأ الكولونيل الحديث الجاد فى الموضوع وهو يقول :

ـ لقد أمرت باعداد كل الخرائط والكروكيات والصور الفوتوغرافية المتيسرة حتى لو كانت من صور رحلات الطلبة .. ونحن الآن فى انتظار من يدعى «ترولر لانجلى» وهو يعرف عن مياه هذه المنطقة واغوارها اكثر مما يعرف أكبر خبير فى البحرية .. ولكن المشكلة اننا نجد صعوبة فى معرفة مكانه ، فهو غائب عن منزله منذ اكثر من ست وثلاثين ساعة ، وهو رجل لايطيق البعد عن الخمر ومشاربها وسقاتها .. أن افاق الى نفسه فأول مايفكر فيه البحث عن مكان جديد يجد فيه ما يروى ظمأه ، ويوالى رجالى البحث عنه فى كل مكان منذ أن اتصل بى «العم جورج» ..

وقطع الحديث دخول ضابط شاب ابتسم له الكولونيل وهو يقول :

ـ بيل .. هـذا هو الرائد فالنتين ، سيرافقك الى حجرة العمليات للاطلاع على الخرائط وما أعددنا له من وثائق فلا تبخل عليه بما يريد ..

***

وحين انحنى الساقى بأدب يسأل «نيكول» ان كانت تريد بعض الشطائر الأخرى ، استيقظت فجاة من ضباب ارموران الذى كان يطويها وعادت الى الحقيقة التى كانت تعيشها هذه اللحظات فى اكسفورد .

لقد بدأ الأمر بالتساؤل ـ فيما بينها وبين نفسها ـ عن ليونيل وأحواله .. أمازال فى ارموران يرسم لوحاته ؟.. هـل اعتقله الألمان ونقلوه الى معسكر من معسكرات الإعتقال التى اشتهروا بها ؟ أين هو الآن ؟ هذا الذى كان رفيق صباها وزميل دراستها الذى لازمها كظلها .. طفلة وفتاة .. وشابة فى ربيع العمر حين أحست معه ـ للمرة الأولى ـ بنبضات القلب وشعرت بخفقاته بين الضلوع .

كانت تسلك طريقها ذات صباح متجهة من القصر الى المزرعة حين مرت بمنزل ليونيل وشاهدته منكبا على احدى لوحاته فأقبلت نحوه مبتسمة ، فرحب بها وهو يقول :

ـ ما رأيك فى هذه اللوحة ؟

ـ ما فكرتها ؟

ـ القلق ..

ـ آه .. !

كانت لوحة بشعة ، لم تجد «نيكول» ماتقوله تعليقا عليها ولم تسعفها بديهتها بغير هذه الكلمة ..

ويبدو أنه لم يسمع تعليقها بوضوح أو أنه لم يعره اهتماما وبادرها يقول :

ـ نيكول .. ماذا ستفعلين اذا اعلنت الحرب ؟

ـ لا تتوفر لى القدرة على اداء عمل كبير .. فانا امرأة ..

ـ اعرف انك امرأة .. ولكن ..

فاستدارت نحوه مسرعة والتقت عينساها بعينيه فى نظرة صامتة وطالت لحظات السكون وبقيت النظرة شبه متحجرة .. ولم نسمع نيكول سوى دقات قلبها عاليسة قوية ، حتى ايقظهـا ليونيل وهو يقول :

ـ لا اريد ان تذهبى الى الحرب .. كم احبك يانيكول ..

ـ وكم احبك .. انا ايضا ..

ـ لا تذهبى اذن .. الا تعلمين انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟ الا ترين انهم لا يقدمون سوى الشباب وقودا لها ، لو ان الشباب تكتل وقاوم صناع الحروب هؤلاء لاستدار حـد السيف نحوهم واتى عليهم .. الا ترين .. الا ترين ..

كلا .. لم يكن فى مقدورها أن ترى شيئا سـوى أن الرجل الذى احبته لايفعل فى اللحظة التى يبوح لهـا فيها بحبه سوى الحديث عن الحرب .

ومرت على نيكول وليونيل ـ بعد ذلك اسابيع وهما معـا فى الجزيرة ، ينطلقان هنـا وهنـاك ، او يسبحان فى مياه الخليج الزرقاء .. أو يجلسان معا على الربوة العالية يتطلعان الى الافق فى سكون أو يتبادلان الحديث .. دون ان تربطهما سوى نفس الرابطة التى جمعت بينهما طفلين ..

وانطلقت شرارة الحرب وجاءت اللحظة التى كانت تعلم انها ستفصل بينهما .. هى الى طريق جديد تطرقه .. وهو على نفس الطريق الذى كان يسير عليه ، ومهما كان الأمر فقد كانت على ثقة من انهما متحابان ..

الفصل الثامن

حين عاد فالنتين رولاند الى مكتب الكولونيل دان استقبله هذا مرحبا وهو يقول :

ــ هل عثرت على ما جئت من اجله ؟

ــ نعم ياسيدى .. لقد لقيت الكثير من العون ..

ــ جميل ، واظننا ــ ايضا ــ وجـدنا الخيط الذى سوف يقودنا الى ترولر لانجلى .. أين أجدك الليلة لو أردت الاتصال بك؟

ــ أقيم فى فندق براون وقد أتنـاول عشـائى فى مطعم «أوبيكيور» فى «سوهو» .

ــ سأتصل بك اذا تطلب الأمر ..

وعاد فالنتين الى حيث كانت العربة تنتظره وتقدم من نيكول وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقول :

ــ يؤسفنى أن جعلتك تنتظرين قليلا .. هل تناولت شيئـا من المرطبات ؟

ــ وبعض الشطائر أيضا ..

ــ الى لندن اذن ..

واستدارت العربة نحو طريق بانبرى ، وسادهما السـكون لحظات قبل أن يقول فالنتين :

ــ قلت ان ابن عمك يقيم فى أرموراال .. أليس كذلك ؟

ــ نعم ، لم يغادرها معنا .

ــ ما اسـمه .. ؟

ــ ليونيل ، واذكر أننى أخبرتك انه فنان يهوى الرسم ..

وسكتت قليلا قبل أن تقول :

ـ لا اظنني راغبــة في الحديث كثيرا عن ليونيل ولـكنني ساخبرك بكل ما تريد عن أرموورال .

ـ فليكن حديثنا اذن عن قطيع الأبقار .

ـ يا له من موضوع للحديث !

واستغرقت في التفكير قليلا ثم قالت :

ـ اننا نهتم فعلا بأبقارنا ونختارها دائما من اقوى السلالات ونتابع انساب بعضها الى عشرات السنين ونسجل كل ـ بها دائما .. وقد يدهشك اننا نتابع دائما نسبة الدسم في البان كل بقرة ومتوسط انتاجها السنوى من الالبان وغير ذلك ..

ـ أهي أبقار رقيقة ، جميلة ، مطيعة ...

فاشرق وجهها بابتسامة رقيقة ، وهي تقول :

ـ الى اقصى حد .. ولـكن ، لم سؤالك هذا ؟

ـ مجرد سؤال .. قد يكون فيه بعض الترفيه .

***

بعد ظهر نفس اليوم ـ التاسع من شهر سبتمبر ـ كان الكابتن وايز يعاين على الطبيعة المنطقة التي تقرر أن يقام فيها حقل الالغام عند «بوانت دى جوا» . وفي طريق عودته الى قصر الحاكم التقى بليونيل فاليز قادما من تجاه القصر .. وارتسمت الابتسامة على وجه وايز وهو يحيي ليونيل ويقول :

ـ هل أصحبك في جولتك قليلا ؟

ـ اذا رغبت يا سيدى ..

ـ أمازلت تمارس هوايتك في الرسم ..؟

ـ لا أجد الانطلاق الذى أنشده ..

ـ اذا كان ما تقصده قيود الاحتـــلال ، فبريطانيا هي التي ارغمتنا على هذا حين أعلنت الحرب علينا .. ومع كل فنحن نحاول أن نحيا معكم حياة طبيعية .

ـ نعم .. اظن انك ياسيدى القومندان بذلت كل جهد فى هذا السبيل ، ولكن .. الا ترى اننا برغم كل هذا نشعر بقضبان السجن تعصرنا ؟.. لايهم أن تكون هذه القضبان مرئية أو غير مرئية ، ولكنها موجودة ، وبعد ذلك تسألنى عن هوايتى ، وفى حياتنا هذه الست ارسم داخل زنزانة .. وماذا أرسم سوى قضبانها الحديدية .. وهل يجد الفنان سوى انطباعات نفسه ؟

ـ لا اوافقك تماما على ماتقول ، فالطبيعة حولك أجمل ما أبدع الخالق ، فما حاجتك اذن الى المناطق المحرمة ..

ـ اذا حاولت رسم هذا الحقل فسيبدو كساحة السجن ، واذا اتجهت نحو هذه المزرعة .. فستبدو لعينى كما لو أن القضبان تحيط بها ، كيف يحول المرء آلامه الى ظلال واضواء وألوان ؟ ..

ـ على كل لقد وصلنا .. هل تشاركنى فى قدح من البيرة ..

ـ أرجو الا ابدو فظا اذا اعتذرت ، ففى جو يحيط به زى الجنود ومظهرهم ، قد تبدو البيرة مرة ..

فابتسم الكابتن وايز وهو يقول :

ـ انت رجل عنيد ، تبدو عقيدتك أقوى من ظمئك .. وهذا ما اقدره فيك أرجو ان تصحبنى الى مكتبى . .

ـ أهو أمر يا سيدى ؟

ـ نعم .. أمر .

انتصب الحارس محييا ، حين تقدم الكابتن ايز بتبعة ليونيل . وفى داخل الردهة توقف ليونيل كالمأخوذ وزاغت عيناه وسط المكان وارتفعت مع السلم الذى كان يتوسط الردهة الى الطابق العلوى ، وفى سكون سمع صوت قلبه ينادى باسم نيكول وصوت باب حجرتها وهو ينفرج ودقات قدميها تطرق المشى ثم رآها تنحنى فوق الحاجز وسمعها وهى تقول :

ـ يا له من يوم عظيم رائع .. الى أين سنذهب اليوم ؟

وأيقن انها ستكون الى جواره بعد لحظات وانهما سيغادران القصر معا .. ولكنه انتفض فجأة على صوت وايز يقول :

ـ تبدو كمن رأى شبحا !! .. هلا جلست ..

ـ هذه هي الحقيقة يا سيدي ..

ـ هـذا لا يبدو لي غريبا .. منك انت صاحب الشخصية المعقدة .

وتوقف وايز قليلا وهو يسجل بضعة سطور على ورقة كانت امامه ـ ثم اعتدل في جلسته وهو يقول :

ـ قـد يدهشك ان تعلم اننا كنا نرقبك بدقة وعنـاية طوال هذه الأيام ، ما من كلمة لم نسجلها عليك ، وما من حركة لم نرصدها لك .. وقد انتهيت الآن الى تصديق قصتك ، ولهـذا قررت ان امنحك ترخيصا بالتجوال في الجزيرة بلا قيود .

وتوقف وهو يقدم الى ليونيل الورقة التي كانت امامه ويقول:
ـ هذا تصريحك .. ارسم ما شئت .. اينما شئت .. وقتما شئت .

وقرأ لينونيل السطور التي كان وايز قد سجلها، ونهض واقفا وهو يضع التصريح على المـائدة ويقول :

ـ انك لرجل كريم أيهـا القومندان .. ولـكنني لا استطيع قبول هذا التصريح .

ـ لأنك انت ايضا شـاب عاقل .. اعطيتك هذا التصريح .. فلماذا لا تستطيع قبوله ؟

ـ لأنني يا سيدي اولا واخيرا من ابناء هذه الجزيرة .. ولا اقبل ان اكون مميزا على اهلي وأصدقائي .. امنحنا جميعا حرية الحركة في جزيرتنا .. وسأهدي اليك صورة لهذا الخليج تبرز ما فيه من جمال وستكون صورة بلا قضبان ..

وبقيت الورقة البيضاء التي كانت تحوي سـطور التفرقة

والخديعة في مسكانها ـ بعد أن رفض ليونيل أن يحملها ، وبقى وايز ينظر اليها وهو شارد الذهن بعد أن عجزت قريحته عن أن تستخلص من القوانين والأحكام والسوابق العسكرية ما يمكنه من مواجهة موقف كهذا الموقف ..

واخيرا استقر رايه على قرار ، فاستدعى مساعـــده وأمره بالتشدد في مراقبـــة ليونيل والقبض عليه اذا خالف التعليمات ولو عن غير عمد .

الفصل التاسع

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء حين توقفت عربة فالنتين امام مدخل وزارة الحرب . وما ان غادرها حتى استدار نحو نيكول يقول :

ــ شكرا لكل مافعلت ..

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ــ لا اخالك تمانعين فى ان نتناول معا طعام العشاء الليلة ..

ثم اشرق وجهه بابتسامة مرحة وهو يقول :

ــ وبالمناسبة اسمى مورلاند .. فالنتين مورلاند »

وعلت ضحكتها قبل ان تجبه قائلة :

ــ اعرف كل هذا .. واعرف انك كنت طالبا فى كلية سان جود . وانك اعتدت أن تتوجه الى هيبريدز لترقب الطيور هناك الا تذكر اننا رقصنا معا منذ عامين ؟

فأجابها وقد اخذته الدهشة يقول :

ــ معذرة .. لابد انني أبدو أمامك فظا .

ــ كلا .. كل ما فى الأمر أن هناك الآن من الأمور التى تشغلك ما هو اهم وأوقع »

وابتسمت وهى تقول :

ــ «بوان دى جوا» فى «ارمورال» .. مثلا »

وقبل أن يجبها مرولاند ، بادرته تقول :

ــ هل اقول ان الدعوة للعشاء هذه وليدة رغبة طبيعية ، أم أنها فرصة مواتية لمتابعة ما انقطع من حديث عن «أرمورال» وابقارها ..

ـ يا له من سؤال تصعب الاجابة عنه ، ولكني ساكون صريحا معك .. اعترف أن الباعث كان لمتابعة حديثنا ، ولكن هذا كان منذ ساعات .. قبل أن نصل الى اكسفورد ، ولكن الأمر يختلف الآن ».

ـ اذن فيسعدني أن ألبى دعوتك »

ـ سأكون في انتظارك في مطعم «ابيكيور» في «سوهو» في الثامنة والنصف ، فالى هذا الوقت اذن .

***

ما ان شاهد العم جورج رجله «فالنتين مورلاند» يدخل حجرته حتى صاح يرحب به ويقول :

ـ كيف سارت الأمور هناك ؟

ـ على خير ما تشتهى السفن .

ـ وهذه الشابة الصغيرة ؟ اكانت ذات نفع .. ؟

ـ مس فاليز انسيكلوبيديا حية عن «ارمورال» . ما من شيء لا تعرفه عنها »

ـ اتدرى من تكون هذه الفتاة ، اتعرف حقيقة منبتها ؟

ـ بالقدر الذى أريده فقط ..

ـ نيكول فاليز» .. ياولدى ، ابنة السوزاريان الراحل «لارمورال» ، وشقيقة الحاكم الحالى الذى يعمل الآن ضمن قوات الداوريات البعيدة المدى في صحراء شمال افريقيا ، وعمله هذا يبعده عنا الآن .. ولهذا كان تفكيرنا في شقيقته . اين هى الآن

وعلت ضحكة وهو يقول :

ـ العروس وليس .. البقرة .

ـ ذهبت لتودع العربة بالمعسكر وسنلتقى بعد ذلك للعشاء »

ـ اتدرى ان لها ابن عم في الجزيرة يدعى « ليونيل فاليز » واحد من هؤلاء الفنانين الملتحين .. ومكانك لا اقدم على محاولة الاتصال به ، ما لم يكن لها رأى آخر »

ـ ساعمل بنصيحتك هذه ولاشك »

وقبل ان يغادر فالنتين الحجرة توقف لحظات واستغرق في تفكير عميق قبل أن يقول :

ـ اذا كان في تفكيرك ان اصحب معي هـذه المراة ... او اي امراة اخرى الى ارمورال .. فتاكد انك مقدم على اجراء خاطىء»

ـ عليك بالعشاء الآن .. وتاكد انني اعرف تماما ما افعله .. اسعدت مساء يابني ..

ـ اسعدت مساء أيها العم جورج .. وتاكد ايضا انني اعني تماما ما قلت ..

***

وفي الموعد المحدود كان «فالنتين» يجلس في بار المطعم وكلما سمع وقع اقدام تقترب ، رفع عينيـه عن الجريدة التي كان يتصفحها ، وما ان يلقي بنظرة فاحصة على ماحوله ، وينظر الى ساعته حتى يعود الى متابعة ما في الجريدة من انباء ..

ووصلت نيكول قبل التاسعة بدقائق واقبلت مهرولة نحو فالنتين وهي تعتذر عن تاخيرها ، وتلقاها فالنتين ببشر وترحاب» يكاد لايصدق عينيه وهو يراها في صورة غير التيكانت عليها حين التقيا في الصباح . أهـذه هي الفتاة التي كانت ترتدي الزي العسكري حين رافقته في رحلته الى اكسفورد ؟ أهذه هي المجندة نيكول التي وعـدها بهذا اللقاء ؟ انه يشاهد الآن فتاة أخرى » ترتدي ثوبا من التـافتاه الخضراء يزينه نسيج رفيع من خيوط الذهب ، يحيط برقبتهـا وينساب فوق صدرها عقد من اللآلىء البيضاء ويتدلى من اذنيها وسـط شعرها الفاحم الأسود قرطان من الفضة المطروقة تزينهما نقوش صينية دقيقة ، وجهها يمتلىء نضارة وعيناها تشعان بريقا هادئا وشفتاها تمتلئان دفئا ، لقـد تحولت الى امراة أخرى تختلف تماما في مظهرها وفي خطوتها وفي رقتها وجاذبيتها . فلم يتمالك نفسه وهو يقول في دهشة واضحة

ـ من ارى .. نيكول ، هل تخدعني عيناي ..؟

ـ نعم .. المجندة نيكول فى زيها العسكرى رقم ٢

ـ أهو الذى صمم ليعصف بالقلوب ؟

ـ لا فاننى أدخر هذا الرداء للوقت المناسب .

ـ فليحفظنا الله اذن .. اتدرين انك تبدين مثل سيدة أعرفها

ـ ومن تكون .. ؟

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ كان من الأفضل ان اعرف هذا منك .

ـ ولكنك لم تسألنى .. وعلى كل فقد لاحظت ان اهتمامك بالابقار يفوق اهتمامك بالأشخاص .

وفى الحظة التى بدآ فيها يرتشفان أقداح القهوة بعد العشاء جاء من يدعو فالنتين الى مكالمة تليفونية خاصة مع اكسفورد .

كان المتحدث هو الكولونيل دان ، وكان هو الذى بدأ الحديث بقوله : ـ لقد وجدنا الرجل .. فى احد السجون بعد ليلة أفرط فيها فى الشرب . واذا توجهت فى الثامنة من صباح الغد الى مبنى محكمة الشرطة فى ضاحية «باو» فستجده .

ـ وكيف أتعرف عليه .. ؟

ـ لا يمكن أن تخطئه بلحيته السوداء المتدلية على صدره .. أرسله الينا فى الحال لنقوم بالتلقين اللازم له .

وعاد «فالنتين» الى المائدة وحين حاولت نيكول أن تستوضحه الأمر قال :

ـ أتعرفين رجلا يدعى «ترولر لانجلى» ؟

ـ وهل منا من لا يعرف « ترولر لانجلى » ؟

ـ اذن حدثينى عنه ..

ـ «ترولر» .. صورة حية للبحار الشجاع المكافح ، عاش حياته كلها فى جزر الشمال . يعرف ماندر أن يعرفه أحد عنها ولا يخفى عليه شىء من أسرار البحار التى تحيط بها ، فى بنيانه أقوى من الثور وأن كان مشبعا بالروم .

وتوقفت فجاة وبدت نظرة الدهشة في عينيها وهى تقول :

ـ لو سالتك لماذا اهتمامك المفاجىء بترولر هذا .. فستدين موضوع الحديث بلباقة ..

ـ كلا ، ساخبرك بالحقيقة .. امستيقظة انت تماما ..؟

ـ تماما....

ـ حسنا .. أتعرفين معنى كلمة « الأمن » ؟

ـ تعنى الابقاء على سرية الأمور .

ـ فى موقفنا اليوم ، تعنى الكلمة أكثر من هذا بكثير ، تعنى الفرق بين الحرية .. والاحتلال ، واكثر من هذا تعنى الفارق بين الحياة والموت لشعب من الشعوب .

ـ لك ان تولينى ثقتك الكاملة .

ـ لست أنا وحدى الذى يوليك هذه الثقة .. فهذا الشعب اقد منحك ايضا .. ثقته العمياء ..

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ ساقص عليك الآن قصة واقعية .. ولما كان لكل قصة عنوانها فان قصتى هذه اسمها «العملية فينوس» .

***

كان الراعى يجلس فى احدى حجرات منزله الداخلية الى بجوار جهاز عتيق للاذاعة ، يبدو صوت المذيع منه كصوت صادر من قلب الارض .. خافتا مهزوزا ..

وفجاة طرق باب المنزل ، فأومأ الراعى الى زوجته ان تتانى قليلا فى اجابة الطارق حتى يخفى الجهاز فى مكانه ..

وحين عادت زوجته يتبعها الزائر ـ كابتن وايز ـ كان الراعى يجلس فى مقعده هادىء النفس رابط الجاش فوقف يستقبل القادم بابتسامة حاول أن تكون رقيقة فاجابه الكابتن بقول :

ـ سمحت لنفسي أن أزوركم في منزلكم .

واستدار وايز في المكان يتفحصه بامعان وفجأة واجه الراعي وهو يقول :

ـ حسنا .. ما الأنباء اليوم ؟

ـ انباء ياسيدى !! لا افهم ما تعني تماما ، ومن أين لنا بالأنباء ونحن لا نتلقاها الا منكم .

ـ لم الخوف يا ابي ؟.. لدى بعض الأنباء أحملها اليك ، لقد وقع الاختيار على جزيرة ارمورال لتكون منطقة تدريب لسرية من قوات العاصفة وستجرى لهم بعض التدريبات الخاصة بالانزال على شواطىء الجزيرة .. سيصلون غدا على المدمرة السريعة «لوبيك» وكما تعلم ، يتحتم أن نتخذ بعض اجراءات أمن غير عادية ويؤسفني أن نكون منها زيادة ساعات حظر التجول .

ـ ساخطر سكان الجزيرة بهذا ياسيدى ..

ـ يؤلمني ما اوقعتكم بريطانيا فيه .

الفصل العاشر

كان اشراق فجر اليوم الجديد على لندن يحمل بعض الراحة والاطمئنان لسكانها ، بعد ليلة قاسوا فيها الأهوال ، كان «هيرمان جورنج» قد شرفهم بالزيارة المعهودة وما ان غادرهم — غير ماسوف عليه — حتى انطلقت صفارات الأمان تزف البشرى لنزلاء الملاجىء وتدعوهم للعودة الى حياتهم الطبيعية .. اذا كانوا مايزالون على قيد الحياة ، وان كانت دورهم ماتزال قائمة .

وفى ساعة مبكرة من هذا الصباح كان هناك من يتقدم فى خطوات ثابتة قوية عبر ميدان «كنجز كروس» وما ان اقترب من المبنى الواقع على ناصية «هوايتهول» حتى اعترضه جندى الحراسة وهو يقول :

— اسعدت صباحا أيها الرقيب .. الى أين أنت ذاهب ؟

— الى وزارة الحربية ، وهاك بطاقتى وتصريحى ..

وتناول جندى الحراسة البطاقة والتصريح وشرع يقرأ مافيهما بصوت واضح ..

« رقيب الكسندر فوريس مطلوب فى وزارة الحرب بالغرفة ٥٧ فى تمام السابعة من صباح السبت ١٥ سبتمبر ١٩٤٠ »

***

فتح ترولر لانجلى احدى عينيه بحذر وسرعان ما أغلقها ثانية . وبقى راقدا مغلقا عينيه هكذا لدقائق وهو يحاول أن يتذكر احداث الليلة الماضية ، ولكن ذاكرته لم تسعفه بشىء . كان

يشعر براسه يكاد ينفجر وأحشائه تكاد تتمزق وسط أتون النار الذى كان يشتعل فيها .

كان يعبر شارع ستراند بعد ظهر الأمس حين أعلنت ساعة « بيج بن » النصف بعد الخامسة . الوقت الذى تفتح فيه المشارب أبوابها مرحبة بعملائها . امثال ترولر هذا وغيره .. وتوالى تردده على هذه المشارب ، وكان فى بادىء الأمر يدقق فى الاختيار فلا يطرق سوى المكان اللائق .. ومع الوقت أصبح على حال لا تميز بين الجيد والغث ، ولا تعير اصوات القنابل اهتماما وهى تهز الاركان هنا وهناك ، ولا تشعر بأصوات المدافع وهى تمزق الفضاء ، ولا ترى عربات الاسعاف أو الحريق وهى تنطلق مسرعة الى حيث يجب ان تكون .. جثة تتحرك ، لا تعى شيئا مما يدور حولها ..

وعلى صوت مفتاح يدور فى قفل الباب الحديدى ، فتح ترولر احدى عينيه ـ مرة اخرى ـ بحذر ثم أسرع يغلقها ثانية .. ثم عاود المحاولة مرات بعد ذلك حتى تبين انه فى قلب زنزانة حديدية يقف على بابها احد رجال الشرطة ..

***

ـ نيكول .. لقد حدث ما اثار دهشتى وحيرتى ، شخص قال انه «العم جورج» .. اتصل بى تليفونيا من وزارة الحرب وقال انه سيرسل لك احدى العربات وستصل بعد دقائق .. من تظنين هذا الرجل ؟

وما ان سمعت نيكول عمتها تقول «العم جورج» حتى أسرعت تقفز من فراشها وهى تقول كمن يحادث نفسه :

ـ بعد الأمس اى شىء يمكن حدوثه .. وليس ببعيد فى المرة القادمة ان اجد غواصة فى انتظارى لتقلنى الى طوكيو ..

ـ لايمكنك الذهاب الى طوكيو يا فتاتى بلا افطار .. يا له من رجل طائش هذا «العم جورج» .

***

ما ان دخلت نيكول الحجرة ٥٧ حتى أدت التحية الى الرجل الجالس على مكتبه يستمع الى نشرة أخبار الساعة الثامنة وما أن رآها حتى استدار نحوها وهو يقول :

ـ مسز فاليز .؟ أسعدت صباحا .

ـ أسعدت صباحا يا سيدى .

ـ اسمى « العم جورج » فقط .. بلا سيدى ، هل تناولت فطورك ؟ .

ـ تناولت قدحا من الشاى فقط .

ـ اذن فشاركينى فى بعض هذه الشطائر .

قالها وهو يبتسم ويدعوها الى الجلوس ثم يقول :

ـ ان الوقت مبكر بعض الشيء ، ولكننى أردت أن أبادلك حديثا خاصا قبل أن تعودى للقاء الرائد مورلاند ، وحين أقول حديثا خاصا فاننى اعنى ما أقول وينطبق هذا على اى شخص .. بما فى ذلك الرائد مورلاند نفسه .. أواضح هذا ؟

ـ تماما يا سيدى .

ـ متى ستلتقين به ثانية ؟

ـ كنا قد اتفقنا على ان نلتقى فى تمام العاشرة بمنزل « العمة هيلواز » ..

ـ اذن فلدينا من الوقت متسع .. خبرينى ماذا تعرفين عن « العملية فينوس » ؟

وبدت الدهشة واضحة على وجه نيكول وهى تقول :

ـ « العملية فينوس » ... أخشى أننى لا أفهم ما تقول .

ـ اذن فانت لا تعرفين شيئا عنها ؟

ـ كلا .. هلا أوضحت الأمر يا سيدى .

ـ هل فى مقدورك تمييز صوت فالنتين مورلاند ؟

ـ اعتقد هذا .

قالها وهو يرفع سماعة التليفون ويطلب من عامل التحويلة أن يوصله بالرائد مورلاند فى فندق براون ، ثم استدار نحو نيكول وأشار الى جهاز تليفون آخر فى الحجرة وهو يقول :

ــ حين يتم اتصالى به ، استمعى ــ من هذا الجهاز ــ الى ما سيدور بيننا من حديث .

وحين علا رنين جرس التليفون وجه العم جورج انظار نيكول الى التليفون الثانى وهو يرفع سماعة جهازه ويقول :

ــ فالنتين ..؟

ــ العم جورج ؟ اسعدت صباحا .

ــ طلبت منك بالأمس ان تخبر مس فاليز بشيء ما .. فهل فعلت ؟

ــ لقد فعلت بكل تأكيد ..

ــ اذن فليس هناك ما تجهله عنه ؟

ــ لا شيء بالمرة .. ولكن لماذا ؟

ــ أردت ان اطمئن فقط .. سأنتظرك بعد أن تلتقى بصديقك صاحب اللحية ..

وما أن انتهى الحديث حتى تبادل العم جورج ونيكول ابتسامة ذات معنى واضح قبل أن يقول العم جورج :

ــ والآن .. هل انت على استعداد للحديث عن « العملية فينوس » ؟ .

ــ بكل تأكيد .. ايها العم جورج ..

***

فى ركن هادىء منعزل بمكتبة وزارة الحرب كان فالنتين مورلاند يتصفح واحدة من الخرائط العديدة التى كانت موضوعة أمامه على المائدة .. وما أن انتهى منها حتى استدار الى الرقيب الكسندر فوريس الذى كان يجلس الى جواره وقال :

ـ الكسندر .. هذه هى الخريطة التى تصلح لنا .. ادرسها جيدا حتى اعود اليك ، وبالمناسبة .. لقد رتبت لك لقاء مع عامل اللاسلكى بالوزارة وأرجو ان تتم ضبط جهازك عليه .. هل من أسئلة ؟ .

وبعد لحظة استغرقها اليكس فى التفكير اجاب بالنفى ..

وانتقل فالنتين الى حيث كان ترولر لانجلى يجلس وبادره قائلا :

ـ حسنا يا « ترو » .. هل نعرف دورك تماما فى هذه المهمة ؟ .

ـ بكل تأكيد يا سيدى ..

ـ ستعاوننا فى الوصول الى الشاطىء عند « بوان دى جوا » ثم تعود مباشرة الى بريطانيا . وفى الليلة التالية ستلتقطنا من نفس المكان على حاملة جنود مجهزة تجهيزا خاصا لهذه المهمة .. ستتلقى التلقين النهائى الكامل صباح الغد فى غرفة العمليات المشتركة وهناك ستحدد التوقيتات النهائية بالاشتراك مع البحرية . حين تصل الى اكسكورد اليوم .. ابتعد عن الخمر .. هل من أسئلة ؟

ـ كيف نتصرف لو اننا وصلنا الى « ارمورال » فى الليلة التالية ولن نجدكم ؟ .

ـ اذا لم تجدنا فى الوقت المحدود فمعنى هذا اننا فشلنا ، وواجبك اذن العودة فى الحال .

ـ اعود واتركم على الجزيرة يا سيدى ؟

ـ تماما .. تعود وتتركنا .. فسندبر نحن أمورنا بانفسنا ..

ـ سأفعل مادامت هذه رغبتكم .

ـ حسنا .. عليك ان تسرع الآن لتلحق بقطار اكسفورد فى محطة بادنجتون .

حين غادر ترولر الحجرة ، تنبه فالنتين الى انه كان يجلس بجوار نيكول طول الوقت .. وانه قد استغرق فى عمله تماما حتى

كاد ينسى أمرها .. وحين التقت عيناها بعينيه أشرق وجهها بابتسامة وضحكت وهى تقول :
ـ هل جاء دورى يا سيدى ؟ »
وعلت ضحكته وهو يقول :
ـ معذرة يا نيكول .. والآن ماذا تريدين ان احضر لك معى من « ارمورال » ؟ .
ـ اريدك أن تعيدنى ثانية .. أريدك أن تعود بنا جميعا .. الكسندر فوريس ، ترولر ، أنت .. وانا .. وكذلك « فينوس » »
ـ ولكنك لن تذهبى معنا .. لن تصحبينا يا نيكول ..
قالها بثبات وحزم الرجل الواثق من نفسه وما يقول .
فاستدارت لتواجهه تماما ، وتوقفت لحظات استغرقتها فى تفكير عميق قبل أن تقول :
ـ حين سألتنى ما أعرفه عن « ارمورال » اخبرتك بالكثير لاننى لم اكن اعرف بعد قصة « العملية فينوس » .. والآن وانا أعرف القصة فاننى أؤكد لك أمرا واحدا .. أن هذه العملية سيكون مآلها الى الفشل ان لم تصحبنى معكم ، وسينتهى بكم الأمر بدونى اما الى معسكر اعتقال أو الى حفرة على عمق أقدام فى تراب ارمورال ..
ـ ولماذا تظنين انها ستفشل ..
ـ لانك لا تعرف الجزيرة ، وسكان الجزيرة لا يعرفونك سيشكون فى أمرك ولن يثقوا فيك أو فيما تقول وما من مخلوق سيقدم لك اى عون .. هذا أمر اكيد ، اذا كنت ذاهبا لتعود بفينوس فأنت فى حاجة الى عون .. فى حاجة الى ثقة الشعب وايمانهم بما تفعل ، اليك مثلا .. كيف ستتعرف على أماكن الحراس ؟
ـ اتعرفين أنت اذن .. ؟
ـ لا . لا اعرف فى الوقت الحاضر فقط ، ولكن حين تطأ اقدامنا ارض الجزيرة فأى من رجالها سيقودنى الى ما أريد

الوصول اليه .. الأمر الذى لن تستطيعه أنت .. هلا أوضحت لى لماذا لا تريدنى أن اذهب ؟

ـ لماذا لا أريدك أن تذهبى ؟

ـ لقد ذكرت لتوك اننا سينتهى بنا الأمر الى معسكر اعتقال أو الى حفرة فى تراب ارمورال .. فهل اقبل لك هذا المصير لو كنت رجلا ، لو كان شقيقك لوك مكانك الآن .. لاختلف الأمر

ـ ولماذا يختلف الأمر ؟

ـ لأن الجنس يختلف .

ـ وهل سيصيبنا غير ماقدر لنا ، هل سأكون هنا فى لندن ، أو فى غيرها فى أمان ، ألا يحتمل ان يصيبنى المكروه وأنا جالسة أقود عربة تقلك او تقل زميلا لك ؟

ـ احقا ترغبين فى الذهاب معى ؟

ـ نعم .. لأننى سأكون ذات فائدة لكم ، ولكنك اذا سألتنى « هل ارغب أنا .. نيكول فى العودة الى «أرمورال» فجوابى .. لا ».

ـ لماذا .. ؟

ـ وهل تحب أن تكون فى عرين الأسد أو جحر الثعبان ؟

الفصل الحادى عشر

قبيل غروب الشمس بقليل . كانت مجموعة من أربعة اشخاص تسلك طريقها على أحد أرصفة ميناء بورتسموث متجهة الى حيث كانت ترسو احدى الغواصات ، وهناك كان القبطان فى انتظارهم ، وما ان التقى بهم وتأكد من شخصياتهم حتى دعاهم الى دخول الغواصة ، وتقدم أمامهم يرشدهم الى الطريق .

كان القبطان ينظر الى نيكول وهى ترتدى سترة رمادية اللون وسروالا من التويد الأزرق — فى تعجب ودهشة وهو يتساءل فى نفسه عن سبب وجودها مع هذه الجماعة وعن السر الذى يحمل المسئولين على اشراكها معهم فى مثل هذه المهمة الخطرة .. واذ لم يجد جوابا لسؤاله ، هز كتفيه — بلا مبالاة — ولسان حاله يقول :

« ان وزارة الحرب تعلم ولا شك ما هى فى سبيله .. » .

ونظر القبطان الى ترولر لانجلى الذى اختفت معالم وجهه خلف لحيته الكثة واخذ يقارن بين هذه اللحية ، ولحيته هو — القصيرة المهذبة الأطراف — ويتساءل كم من الشهور استغرق نموها حتى بلغت هذا الحجم ..

وانتهت لحظات الصمت القصيرة التى سادت المجموعة وهم يرتشفون اقداح الشاى التى قدمت لهم ، وبدأ القبطان يشرح لهم المرحلة الأولى من العملية . والتى سيتولى هو فيها القيادة فيقول :

— سنبحر بعد دقائق .. واتوقع أن تكون رحلتنا سهلة ، ويتوقف هذا ولا شك على اصدقائنا قادة طائرات اللوفتهوف ، سنبقى على السطح قدر ما نستطيع حتى يسهل علينا أن نسلك

طريقنا وسط حقول الالغام ، واذا ما ظهر أصدقاؤنا .. وجب أن تغوص فى الحال الى الأعماق ، سنتوقف قرب شاطىء الجزيرة فى المنطقة المعروفة باسم خليج « بيتى بيجون » ، وبعد نزولكم الى القارب سننتقل نحن الى منطقة أخرى الى الشمال الغربى تدعى « روزى شوفال » ونبقى فيها فى سكون تام لمدة ثلاثين دقيقة فى انتظار صديقنا صاحب اللحية ، وحين نلتقطه سنعود مباشرة الى انجلترا .. أهذا واضح ؟ »

فأجابه فالنتين يقول :

ــ غاية فى الوضوح ..»

وحين بدأت آلات الغواصة تدور ، غادر القطبان المكان متجها الى مقر قيادته ..»

***

وفى الغرفة الصغيرة ــ فى قلب الغواصة ــ بقى فالنتين واقفا الى جوار الكسندر فوريس ولانجلى ترولر يتدارسون معا الخريطة الموضوعة أمامهم على المائدة .. وفى صوت ثابت النبرات توجه فالنتين بالحديث الى فوريس قائلا :

ــ « اليكس » .. هل تظن الآن ان فى مقدورك ان تجد طريقك بسهولة حول « ارمورال » ؟ »

ــ بلا شك .. ما دامت هذه الخريطة دقيقة ..»

ــ وأنت يا لانجلى ؟

ــ ألا تكفينى خبرتى بالبحر ؟ »

ــ فعلا .. انها كل ما نطلبه منك ..»

ــ أتذكر التوقيعات المحدودة فى الخطة ؟ »

ــ نعم ..

ــ هلا أوضحتها بايجاز ؟ »

ــ ستكون انت ومس نيكول وفوربس ومعكم البقرة وقتا



ارتفاع المد — اى حوالى النصف بعد العاشرة من مساء الغد — عند « بوانت دى جوا » فى انتظار من ينقلكم الى الباخرة .

وفى لهفة وقلق ظاهرين جرت أصابع يديه وسط شعيرات ذقنه قبل ان يقول :

— بحق السماء لاتتأخروا عن هذا الموعد ، فالمد لايستمر طويلا فى هذه المنطقة .. والرياح ليست دائما مستقرة ..

— سنكون هناك فى الموعد المحدود .. فلا تقلق ..

وقطع عليهم الحديث صوت حاد صادر من مكبر الصوت يقول :

— استعدوا سنطفو الى سطح الماء .»

فعلقت نيكول قائلة :

— هل وصلنا ؟ .»

— أظن ذلك ..»

وسرعان ما غادرهم ترولى متجها الى حيث كان يقف القومندان ليكون الى جواره وقت ارساء الغواصة .»

الفصل الثاني عشر

كان صوت مجدافى القارب المطاط الذى كان ترولر عائدا به الى الغواصة ، هو الصوت الوحيد الذى يصل الى آذان فالنتين وجماعته وهم وقوف على الشــاطىء يرقبون القارب وهو يبتعد عنهم ..

وفى همس توجه فالنتين الى نيكول بالحديث قائلا :

ـ لقد اندمجنا تماما فى العملية ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

ـ العدو امامكم .. والبحر خلفكم ..

فأجابته نيكول تقول :

ـ وهل فى هذا ما يغير من الأمر شيئا ؟

والتقط يديها بين يديه ، كانت أشد برودة من الثلج ، وكان يشعر بها ترتجف . حاول أن يشعرها بالطمأنينة التى كانت تفتقر اليها فى هذه اللحظات ، وعمل على أن يعيد اليها الثقة فى النفس وفى المجموعة .. الأمر الذى كانت تحتاج اليه ، وحين انتظمت أنفاسها وعاد الدفء الى اصابع يدها ، وأشرقت الابتسامة على وجهها ، ازدادت قربا من فالنتين وهى تقول :

ـ سأتقدمكم الى هــذه الربوة ، خشية وجود احد الحراس هناك ..

ـ وما العمل ان كان هنام من يقوم بالحراسة ؟

ـ سأتولى أنا والكس امره .

وتحرك الثلاثة فى الظــلام ، وما أن اطمأنوا الى خلو الربوة

حتى تقدمت نيكول الجماعة لترشدهم الى الطريق .. بعد أن اطمأنت نفسها وهدأت اعصابها ..

كانت هذه هي بداية المغامرة .. وكان الطريق امامهم مازال طويلا .. وكان لابد ان يحققوا ماجاءوا من اجله ، مهما كانت المسيرة صعبة .

وأخذت نيكول تتحسس طريقها فى سكون وحذر . يربط ما بينها وبين فالنتين والكس حبل طويل حتى لا يضلا الطريق وسط هذا الظلام الحالك .

وكانا يتبعانها في سكون وبلا تدخل ، وكانت هي سعيدة بهذه الثقة المتناهية التي وضعاها فيها .

وتوالت معالم الطريق امام عينى نيكول وتتابع شريط الذكريات في ذهنها ..

هذه ساحة بركة البط ، وهذا منزل بيير وجوليت .. لماذا هذا الضوء الخافت الذي ينبعث من خلف الستائر وقد اعتادوا الرقاد مبكرا .. وولدهما جورج .. هذا الشيطان الصغير الذي كانت تسعد بصحبته كثيرا . وهذه مزرعة روجيه .. ترى كيف حال زوجته لوسى الآن .. هل زالت عنها ازمة الربو التى كانت تعانيها ؟ . وهذه دار الأرملة مادلين جوبليمز التى كانت تنتظر عودة زوجها على الشاطىء كل مساء بعد أن خرج الى الصيد هو وابن أخيه وضاعا وسط المحيط الهادر ..

وسلكت الجماعة طريقا وسط الحقول الممتدة حتى وصلت نيكول الى حيث يقوم جدار متوسط الطول وهناك انتظرت فالنتين والكس حتى وصلا ، وما ان اطمئنوا الى خلو المكان من أى عيون ترقبهم حتى اسرعوا يرتقون الجدار فى حذر وسكون .

وتوقفت الجماعة من جديد تنصت في حذر .. قبل ان تهمس نيكول وهى تشير الى بناء مرتفع قليلا تنبعث منه بعض الأضواء الخافتة :

ــ هذا قصر الحاكم ..

فهمس فالنتين يقول :

ــ والى يساره قليلا .. « معبد فينوس » ..

فحاولت نيكول أن تكتم ضحكة بدرت منها وهى تقول :

ــ تماما .. « معبد فينوس » ..

ــ اذن فعلينا أن نقطع هذا الطريق ونحن على مقربة من القصر لنصل الى فينوس ..

ــ نعم ، لا نستطيع تجنب عبور هذا الطريق ..

ــ أمامنا وسيلة واحدة .. هلا جلسنا قليلا حتى أوضح فكرتى .

وجلسوا على الأرض يتبادلون الرأى ، ويتدارسون الموقف حتى وصلوا الى قرار .

وفى هذه اللحظة بدا كما لو أن كوكبا قد انفجر فى كبد السماء وتهاوى ــ وبريقه يخطف الأبصار .

ــ وشعرت نيكول بيد فالنتين تتحسس يدها وهو يقول :

ــ نيكول .. هل شاهدت هذا ... ؟

ــ نعم ...

ــ هل تمنيت أمنية .. ؟

ــ طبعا .. وأنت .. ؟

ــ وهل يفوتنى هذا ..

ــ يجب الا تخبر أحدا بها .. والا فلن تتحقق ..

ــ هذا صحيح ..

ونهض فالنتين على قدميه وهو يقول :

ــ علينا أن نذهب الآن ..

وتابعت الجماعة سيرها ــ فالنتين فى المقدمة تتبعه نيكول فى الوسط ، يسترها الكس فى الخلف ــ فى خطوات حذرة متلصصة فى ستر السياج الممتد والأشجار الوارفة الى أن وصلوا الى انحناءة الطريق خلف القصر .

وتنبه احد الحراس الى أصوات أقدام قريبة منه ، وركز كل حواسه فى متابعة هذه الأصوات والبحث عن مصدرها . ولم يطل به الامر ، فقد كانوا يزدادون قربا منه ــ لحظة بعد اخرى ــ ولم تمض ثوان حتى كانت جماعة من جنود العاصفة ــ التى تجرى تدريباتها فى طول الجزيرة وعرضها ــ تعبر الطريق أمام الحارس وما ان تبادلا التحية التقليدية حتى عاد الحارس الى هدوئه . وفى هــذه اللحظات كانت الجمــاعة قد نجحت فى عبور الطريق خلف القصر ..

ولم تمض لحظات حتى كانت يد نيكول تتحسس قفــل باب الحظيرة .. وما أن انفرج قليلا حتى أسرعت الى الداخل وخلفها فالنتين واليكس .

وفى وسط الظلام الحالك ، رقدوا جميعا على الأرض يلتقطون أنفاسهم ، ويستردون السيطرة على أعصابهم التى كادت تتمزق .

وكانت نيكول أول من تكلم حين طلبت من فالنتين مصــباحه الكهربى ، وفى وسط شعاع الضوء المنبعث من هذا المصباح وقعت أنظارهم على بقرة ترقد وسط الحظيرة ، وحين وقع الضوء على عينيها رفعت رأسها فى تراخ وكسل وهى تتســاءل من القادم فى مثل هذا الوقت من الليل ، وكما لو أن نيكول ارادت ان تجيبها عن سؤالها ، ارتمت عليها واحاطت عنقها بيديهــا ــ فى نشــوة وفرح ــ وهى تقول :

ــ « فينوس » .. لقد عدنا اليك ، وسنصحبك معنا .. لن نتركك بعد اليوم .

الفصل الثالث عشر

واشرقت الشمس وبزغت اشعتها تبدد الظلام الذى كان يطوق الجزيرة . وتعالت اصوات الطيور المغردة مهللة وهى تستقبل ضوء النهار قبل أن تنطلق متحررة ، بعد ان زال القيد الذى كان يفرضه الظلام عليها .. وفتحت ابواب .. خرج منها البعض سعيا وراء لقمة العيش ، مستغلا الساعات القليلة التى يستطيع فيها ان يجول على جزء من أرض بلاده ، دون أن يعترض حارس يحد من حريته .. واستيقظ الرامى ووقف فى نافذة غرفته يملأ رئتيه بنسمات الصباح الباردة .. لا يدرى ما تخبئه الساعات القليلة القادمة من مفاجآت .

وعبر احدى نوافذ الحظيرة ، قفز الى الداخل قط سيامى رمادى اللون .. ووقف يتثاءب فى كسل ظاهر وهو يبحث عن مكان يرقد فيه ، وفى جولته القصيرة التقى بجسد مستغرق فى سبات عميق فوق كومة من الدريس ، وسرعان ما تعرف على صاحبته .فاخذ يمسح ذراعيها وساقيها فى فرح ونشوة ، الى أن تنبهت الراقدة وفتحت عينيها فى بطء ظاهر .. وحين اكتملت يقظتها احتضنت القط بين يديها وهى تصرخ وتقول :

ــ باتشى .. كيف جئت الى هنا ؟ .

واستيقظ فالنتين ، ثم الكس . وتبادل الجميع تحية الصباح ، ونظر فالنتين الى ساعته ، وقال :

ــ الكس .. يجب أن تسرع فى الاتصال بلندن .. امامك ثلاث دقائق فقط . ولا تخش شيئا ، فليس فى الجزيرة اجهزة للتصنت اللاسلكى .. ولن يتنبهوا الينا أو يكتشفوا امرنا ..

وفي الوقت المحدود أخذ الكس يملي رسالته ولكنه سرعان ما توقف . فقد كان هناك من يقترب من الحظيرة فى خطوات بطيئة كانت تبدو واضحة فوق الطريق الصخرى .. وسرعان ما انفرج باب الحظيرة ، ودخل القادم واغلق الباب خلفه في هدوء ، واتجه مباشرة الى حيث كانت ترقد فينوس ـ ومن فوق راسه ـ كانت عيون افراد الجماعة ترقبه فى حرص وحذر وهو يتقدم نحو البقرة وينحنى فوقها يربت عليها فى عطف ظاهر ..

وتضحك نيكول من كل قلبها ، وفى نشوة وجذل تقول وهى تتجه نحو السلم الخشبى المثبت فى الجدار :

ـ انه « باتست » ، لاتقلق .. تابع ارسالك وسأنزل للقائه ..

وفى لحظات .. كانت الى جواره ، وما أن تمالك العجوز نفسه ، وافاق من الذهول الذى أصابه حتى احتواها بين يديه وهو يقول :

ـ من أرى .. أهذه أنت يا سيدتى .. أحقيقة ما تراه عيناى .. مدموازيل نيكول .. كيف عدت ؟

ـ نعم يا باست .. اننى نيكول .. كيف حالك ؟

ـ ماذا تفعلين هنا يا سيدتى ؟

ـ اهدأ .. وسأقص عليك كل شيء ..

ولكنها سرعان ما توقفت وأسرعت ترتقى درجات السلم الى المخزن الدريس الذى كانت ترقد فيه مع فالنتين والكس ..

فقد كانت هناك أصوات أقدام تقترب من الحظيرة .. قوية ثابتة حازمة ، لا يمكن أن تكون الا لشخص يعرفونه تماما ويتحتم أن يكونوا على حذر منه ؛

وتوسط القادم الحظيرة ، وما أن وقعت أنظاره على بايتست حتى اتجه اليه مبتسما وهو يقول :

ـ أسعدت صباحا يا بايتست ..

ـ أسعدت صباحا يا سيدى القومندان ..

ـ كيف حال عروسنا اليوم .. أتبدو على خير ما يرام ..
فاستدار حولها يتفحصها بعينيه قبل أن يقول :

ـ يبدو أنها ستضع مولودها اليوم أو غــدا واظنه سيكون ذكرا .. ألست معى فى الرأى ؟

واذ لم يتلق من العجوز جوابا استدار نحوه واذ لمس حيرته ولهفته صرخ يقول :

ـ ماذا بك ايها الرجل ؟ لبد كمن شــاهد شــبحا .. تماما كما كان ليونيل فاليز بالأمس .

وبصوت بث الرجفة فيه واضحة أجاب « بابتست » :

ـ لم ار شيئا يا سيدى .. ابدا لا شيء اطلاقا ..
ـ اذن فقد كانت الجرعة قوية ليلة الأمس .. أمازلت تفرط فى الشراب ؟ .

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ لاتخرج بها حتى يجف النــدى عن العشب ثم اربدها بعد ذلك فى المرعى المجاور للقصر .. حتى لا تغيب عن عينى هــذا اليوم أيضا ..

وتوقف يربت على عنقها وراسها ويبتسم ـ ابتسامة خالها ابتسامة النصر ـ قبل ان يقول :

ـ يا غالية .. بعد أيام قليلــة ستأكلين عشــب وســتفالية الدسم .. أنت وولدك النبيل ..

كانت نيكول ترقد فى مخبئها وقد انثنت ساقها فى وضع لم تســتطع ان تتحمله طويلا وبدات تشــعر بآلام حادة تكاد تمزق عضلاتها .. فأخذت ـ فى حرص وحذر ـ ترفع ساقها وتدفعها الى الخلف فى سكون .. ويشاء الحظ العاثر أن تصطدم قدمها بدلو اخذ يتقلب محدثا صوتا كدوى الطبول الى أن يتوقف على راس السلم لحظات قبل أن يستدير ثم يتهادى فوق درجات السلم واحدة بعد الأخرى ، وفى نزوة كنزوة الشباب الطائش ، تخطى

الدرجات الاخيرة بقفزة واحدة وليستقر وسط الحظيرة .. تحت قدمى القدمندان ..

وسرعان ما اشهر القومندان سلاحه وهو يندفع نحو السلم ، ولكنه توقف فجاة وعلت الابتسامة شفتيه ثم انفجر ضاحكا وهو يرى القط السيامى واقفا على راس السلم ..

وما ان غادر القومندان الحظيرة .. وتلاشى صوت وقع اقدامه ، حتى قفز فالنتين الى جهاز اللاســلكى ليعاون الكس فى اتمــام الاتصال بلندن بعد ان ضاعت دقائق كاللآلىء ..

وبعد ان ختم الكس ارساله ، واطمـأن فالنتين على رسالته الى العم جورج .. بعـدها فقط بدأ يستعيد ما حدث ويتملى بالمعجزة التى وقعت ، وحين بحث عن القط وجده يرقد فى هدوء وسعادة بين يدىَ نيكول .. وهو ينظر اليه نظرة حانية تكاد تقول ان اصدقاء نيكول هم ايضا اصدقائى .. واشرقت الابتسامة على وجه فالنتين واتجه نحو نيكول وهو يقول :

ــ الى العمل ايها الرفاق ..

ثم وجه حديثه الى نيكول يقول :

ــ ستذهبين الآن لمقـابلة رامى الكنيسة ويحسن ان تسلكى طريقا وسط بساتين الفاكهة وفى ستر الأشجار والسياجات ، كم تستغرق مقابلتك له ؟ .

ــ لا أدرى تماما .. ربما نصف ساعة أو أكثر قليلا ، فلدى الكثير الذى أريد بحثه معه ..

ــ فلنقل ساعة .. سأغادر هذا المكان انا والكس ــ كل عـلى حدة ــ وسيسلك كل منا طريقا منفصلا ينتهى فى «بوان دى فوشى» وسنلتقى جميعا هناك بعد ساعة واحدة بالضبط .. وعلى ضوء ما تحملين من معلومات .. سنقرر ما سنفعله بالتفصيل .. أهذا واضح ؟ .

ــ نعم ..

ـ حسنا سنضبط ساعاتنا الآن ثم تذهبين أنت فى رعاية الله .

ثم توقف قليلا قبل أن يقول :

ـ بقى ما اريد تاكيده .. اذا صادف أحدنا سوء الحظ ولم يستطع اللحاق بالباقين فعليهما أن يتابعا المهمة بلا توقف أو انتظار .. مهما حدث ..

***

استيقظ راعي أرمورال مبكرا كما اعتاد واتجه نحو حظيرة صغيره للدواجن كانت في الجزء الخلفى من حديقة المنزل ، وبعد أن قدم لها طعامها الذى كان يحمله ، وبدل الماء الذى كان أمامها فى الاناء .. أخذ يبحث عن البيض هنا وهناك .. وكما اعتاد كل صباح عاد الى المنزل حاملا ما يكفى افطاره هو وزوجته .

وما ان ولج الباب الخلفى للمنزل حتى سمع زوجته تدعوه واللهفة بادية على صوتها فلما أجابها مستوضحا بادرته تقول :

ـ بحق السماء هلا اسرعت ؟

ـ مابالك .. أمريضة أنت ؟ ..

ـ لا لست مريضة .. فقط اشعر بالخجل من نفسي ومن كل ما حولى ..

قالتها وهى تلتقط يده بين يديها المرتجفتين وللحظات بقيت عاجزة عن الكلام وهو يحاول أن يستخلص منها شيئا دون جدوى ، وحين تمالكت نفسها قليلا صرخت تقول :

ـ يا الهى .. الم تغتسل بعد .. وهذه الثياب الرثة .. والحذاء القذر ، أنت راعى مورال ، كيف تبدو هكذا أمامها ..

ـ أمام من ؟ بالله خبرينى ..

ـ أسرع وارتد حلتك الجديدة ، ولا تنس الياقة المنشاة وربطة العنق . أعطنى هذا الحذاء لأقوم بصقله ... بالله أسرع ..

ـ ماذا حدث يامرأة .. ما هذا الذى تقولينه ..

ـ ماذا حدث ؟ سأخبرك بما حدث ... انها هنا ...

ـ ومن هى ؟

ـ مس نيكول .. لقد عادت الينا ..

***

ـ لقد تجاوزت الوقت بسبع دقائق ..

ـ يؤسفنى هذا .. فلم يكن فى مقدورى أن أتجنب هذا التأخير بعد أن عجزت عن اقناع زوجة الراعى .. لقد حملته على أن يرتدى ثيابا لائقة قبل أن يقابلنى . فالنتين ، أتدرى ماتعنيه العودة الى أناس بسطاء كهؤلاء .. أشعر بنفسى ضعيفة هزيلة وأنا الى جوارهم .. انهم ملح الأرض ، وفى مقدورك أن تثق فيهم وأن تعتمد عليهم فلن يصيبك مكروه منهم ولو كان فى الأمر هلاكهم ..؟

ـ كنت قلقا عليك .. والآن ماذا تحملين من أنباء ..؟

ـ الى بالخريطة أولا ..

ـ هاهى ذى .. ولن نكون فى حاجة اليها بعد ذلك ..

وشرعت نيكول توضح ما حصلت عليه من معلومات فقالت :

ـ تتخذ عناصر الحراسة أماكنها كل ليلة من الغروب حتى شروق شمس اليوم التالى فى تسع نقط على رأسها بوانت دىجوا ومن حسن الطالع أن بيتى بيجون التى جئنا منها بالأمس لا تقوم عليها حراسة .. ويربط هؤلاء الحراس بمركز قيادتهم فى القصر خطوط تليفونية ميدانية .. كما قام الألمان ببث الألغام فى بعض المناطق (أشارت عليها) وهى محاطة بالأسلاك الشائكة . الجنود جميعهم يعرفون اللغة الانجليزية .. ويقودهم من يدعى الكابتن وايز وهو من شاهدناه فى الحظيرة هذا الصباح ، وكما لاحظتم فهو يحب فينوس ويريد أن تكون انتظاره طول اليوم .. وهذه هى العقبة الأولى كما أظن ... أما العقبة الثانية فهى رقيب يدعى فوجيل يتصف بالقسوة والأفق الضيق .. وتقيم بالجزيرة الآن قوة من جنود العاصفة ... هم من طبقة مختارة من الجنود الألمان ولذا

يشعرون بالتعالى على غيرهم من الجنود وليس بينهم وبين جنود واير سوى الحب المفقود ٠٠ وقد يكون فى هذا بعض الخير لنا ٠٠

ـ وما هى العقدة الرابعة ٠٠؟

ـ انها أسوأها جميعا ٠٠٠ هناك مدمرة جيب المانية تسمى « لوبوك » من أحداث قطع الأسطول الألمانى وأقواها تسليحا وأشدها سرعة ٠٠

فأجاب فالنتين يقول :

ـ انها أسوؤها جميعا بلا شك ، علينا أن ننقل هذا الى العم جورج فى الحال ٠٠

قالها وفى ذهنه دوامة تعصره وتكاد تشل تفكيره ٠٠ انه يعرف العم جورج تمام المعرفة ، ويعلم أنه لن يضحى بأى سفينة تأتى لتنقلهم بعد أن يعلم بوجود هذه المدمرة فى مياه الجزيرة ٠٠ لو أنه كان وحده هو والكس .. لو أن نيكول لم تصحبهما فى هذه المهمة ٠٠

وقطع الكس على فالنتين حبل تفكيره وهو يقول :

ـ مستر فالنتين ٠٠ كيف تكتب اسم هذه المدمرة ٠٠؟

ـ لوبوك .. ل ـ و ـ ب ـ و ـ ك .. ولكن لماذا .. ؟

ـ أشعر أن رسالتك الى « العم جورج » ستتضمن شيئا عنها ٠٠

ـ هذا صحيح ٠٠ ولو أننا سنتابع المهمة كما لو أن هذه المدمرة بعيدة عنا تماما ، وببساطة ٠٠ يجب أن نتناساها كلية ٠٠

واستغرق فالنتين فى التفكير لحظات قصيرة قبل أن يقول :

ـ الكس .. ستسلك طريقك المحدود هذا المساء وستقوم بقطع الاتصال التليفونى بين القصر ويوانت دى جوا فى الوقت المعين ٠٠ سأتوجه الى « باى دى أوندين » بعدك بخمس دقائق ٠٠ وسنلتقى هنا ثانية قبل الساعة الواحدة تماما ٠٠

ثم استدار نحو نيكول وهو يبتسم ويقول :

ـ نيكول .. ماذا تقترحين لشغل ساعات هذا الصباح ..؟

ـ أرجو الا تسخر مما سأقوله ، فالأمر جد خطير .. لقد تبادلت الرأى مع الراعى حول امكان نقل فينوس من مكانها الحالى بعيدا عن انظار القومندان واستقر رأينا على أمر سأحدثك عنه .. فهل انت مصغ الى ؟

الفصل الرابع عشر

واخيرا استيقظ ليونيل فالين ، وفتح عينيه وهو يحـاول أن يتجنب أشعة الشمس التى كانت قد غمرت الحجرة ..

وغادر الفراش في بطء وتراخ واتجه نحو المطبخ ـ وهو عاري القدمين ـ ليعد لنفسه قدحا من القهوة ـ الأمر الذى كان لا يقدم عليه كثيرا بعد أن رأى أن ما لديه في وعاء البن قد أخذ يتضـاءل يوما بعد يوم .. وما من أمل يبدو امامه فى ان يحصل على كميـة أخرى جديدة منه ..

واتجه نحو النافذة ـ قتلا للوقت ـ حتى يغلى الماء الذى يعده لقهوته .. وسط السكون الذى كان يسود الجزيرة فى هذا الوقت من الصباح وصـلَ الى أذنيه صوت غناء بدأ خافتا فى أول الأمر ثم أخذ يرتفع حين اقترب المنشدون .. وكانوا فصيلة من الجنود الألمان تأخذ طريقها نحو القصر . لم يكن ما سمعه أغنية رقيقـة تليق بنسمات الصباح العذبة ، بل كان نشيدا زاخرا بكلمات الحرب والنصر والموت ، وكان الجنود يرددونه فى نغم يندفع من حناجرهم عاليا قويا ، ويتموج مع وقع أقدامهم القوية على أرض الطريق الصلبة ثم رأى شيئا آخر .. رأى فتاة تنتقل مسرعة الى الجانب الآخر من الطريق ولكنها لا تنجح فى تجنب رتل الجنود ، واذ تقع أنظارهم عليها .. يعلو صفيرهم وتنطلق نداءاتهم ... ويلوحون لها ويهللون لا وهى أيضا تلوح لهم بيدها مودعة ..

وأغلق ليونيل نافذته وعاد الى المطبخ .. ولم تمض لحظات حتى سمع وقع أقدام تقترب من منزله ثم سمع أزيز الباب الخارجى وهو

يفتح ولم تمض لحظات حتى كانت نيسكول واقفة امامه .. وهى تبتسم وتقول :

ـ لقد كانت رغبتك في أن أعود سريعا .. وهاأنذى جئت ..

***

سلك فالنتين مورلاند الممر الضيق الذى كان يؤدى الى الشاطىء الرملى المسجل على الخريطة تحت اسم « باى دى لوندين » .. وتوقف في نهاية المنطقة الصخرية التي تشرف عليه ـ وهو يمعن في النظر فيما حوله من جمال .. وتتوه أفكاره بين مياه المحيط الزرقاء تكسوها ـ هنا وهناك ـ طبقات تشبه الزبد المضروب ، وبين رمال الشاطىء الممتدة كبساط أصفر تحت الأقدام وشجيرات الكرز بأوراقها الخضراء وثمارها الحمراء .. هل يصدق العقل انه نزل الى هذه الجزيرة ليلة أمس وسط الظلام ومن قلب غواصة، أصبح أنه يقف الآن بين أعداء لن يترددوا فى الفتك به لو انهم اكتشفوا أمره ..

وافاق الى نفسه حين احس أن الوقت يسرقه وتنبه الى انه انما جاء لمهمة يتحتم ان ينجزها بسرعة .. فخلع عنه حقيبته ووضعها الى جواره وبدأ يفحص الأرض التى كان يقف عليها ، والمنطقة التى كان قد وصل اليها بعين الخبير الذى جاء يطلب شيئا محدودا .. ولم تمض لحظات حتى كان قد حدد ثلاثة اماكن تشكل رءوس المثلث وبدأ فى حرص وحذر يرفع ما فى الحقيبة من مفرقعات ثم قام بضبط أجهزة التفجير الثلاثة التى كان يحملها على توقيت معين بحيث تعمل على التوالى وبفاصل دقائق محدودة. وما أتم دفن المفرقعات وأجهزة التفجير الآلية فى الأماكن التى حددها وتأكد من أن الأعين لا يمكن أن تكشفها حتى أخرج آلة التصوير التى كانت بالحقيبة وشرع يلتقط بعض الصور اشباعا لهوايته .

وفجاة شعر بفوهة مسدس تلتصق بظهره وصوت يأمره بالتسليم ، وحين استدار رافعا يديه لأعلى صرخ الطفل وعلت ضحكاته فبادره فالنتين يقول :

ـ من تكون ايها الفارس الشجاع ؟
ـ ولمــاذا اخبرك باسمى .. من تكون انت ؟
ـ ولمــاذا اخبرك انا باسمى .. هل اخفض يدى ؟
ـ لا باس .. ولــكنى انذرك فسلاحى معى .. لقد شاهدتك ليلة الأمس انت ومس نيكول وصديقكما الثالث ، فانا اعيش فى منزل العم بيير .. وجدى هو راعى الـكنيسة .. لقد شاهدتكم بعينى راسى وانتم تعبرون المزرعة .
ـ كان من الواجب ان نكون اكثر حرصا حتى لايرانا احد .
ـ لا تقلق .. فصديق مس نيكول صديق لنا ايضا .
ـ هذا جميل منك .. والآن ما اسمك ؟
ـ خبرنى انت اولا ..
ـ ولمــاذا ؟
ـ لاننى انا الذى يحمل السلاح .
ـ لقد فاتنى هذا .. اسمى فالنتين .
ـ وانا جورج .. والآن وقد تعارفنا فلا داعى لهذا السلاح .
ووضع جورج لعبته الى جواره بعد ان دعا فالنتين الى الجلوس معه .. ثم قال :
ـ لقد غادرت مس نيــــكول منزل جدى واتجهت نحو منزل مستر ليونيل ، وصـــــديقك ـ لا ادرى ما اســـمه ـ بالقرب من «بوانت دى جوا» الآن ، انه رجل ماهر فهو يقف فى مكان لايستطيع الألمــان ان يكشفوه فيه .. انه امهر منك واكثر حرصا ، فأنت الآن فى مكان مهدد مكشوف .
ـ ولمــاذا اذن ؟..
ـ لانك لم تجد امامك ـ وقت الحــاجة ـ سوى طريق واحد للهرب ، فماذا تفعل لو جاء الألمــان منه ؟
ـ ولمــاذا يأتون منه ؟
ـ لانه الطريق الوحيد الى هذه المنطقة التى يستحمون فيها كل يوم وفى مثل هذا الوقت .

وكان الوقت ــ فعلا ــ قد أصبح متاخرا وكانت فرصة الهرب قد ضاعت .. فقد كان صوت انشاد الجنود قد اصبح واضحا .. وهم يزدادون اقترابا من الشاطىء ، فصرخ الطفل يقول :

ــ اسرع .. اقفز الى الماء ، فهذا سبيلك الوحيد الى النجاة ساخفى ملابسك وحاجاتك وسالتقى بك هناك .. عند هذه الصخرة البعيدة ».

ولم يتردد فالنتين ، وفى لمح البصر كان قد خلع عنه ملابسه وقفز الى الماء بينما اصوات الجنود تعلو وتعلو تملأ الجو وعيدا ً وتهديدا .

وصرخ قائد القوة فى وجه جورج يقول :

ــ لماذا وقوفك فى هذه المنطقة الممنوعة ، ماذا جئت تفعل هنا ؟

ــ انتظر وصول الانجليز .

ــ ومن يكون هذا الرجل الذى يسبح هناك ؟

ــ لابد انه ونستون تشرشل .

وتعالت ضحكات الجنود وهم يرون الطفل يعدو مبتعدا .. بعد ان اطمان على فالنتين وهو يراه قد اختفى تماما عن انظار الجنود .

***

وبقى ليونيل ينظر الى نيكول ، لا تصدق عيناه انه يراها امامه وانه يسمعها تخاطبه ، وفى حنان وعطف اقتربت منه وهى تقول :

ــ اليس من الافضل ان ترتدى شيئا فى قدميك وان تضع ملفحه على كتفيك حتى لاتصاب بنزلة برد ؟

ــ نيكول .. احقيقة ماتراه عيناى ؟

ــ نعم .. اذهب اولا وارتد شيئا .

ــ الن تتلاشى اذا غبت عنك لحظة واحدة ؟

ــ نعم .. سأكون فى انتظارك .. أعدك بهذا .

فاسرع الى حجرة النوم وارتدى أول شيء وقعت عليه عيناه . وحين عاد وجد نيكول تجلس فى هدوء وسكون .. وبدت له كما لو انها لم تغادر ارموزال أبدا وان العام الذى انقضى وهى بعيدة عنه كان كابوسا ثقيلا افاق منه وانزاح عن كاهله . فاقترب منها وهو يقول :

ــ أكنت أنت من لوح بيده للجنود منذ لحظات ؟

ــ نعم . لم أستطع ان أتجنبهم ورايت انه من الأسلم أن أجاريهم .

ــ لم يخطر فى ذهنى أبدا أنك انت .. نيكول ، من كانت تقف هناك .. حدثينى كيف جئت ؟ ماذا تفعلين هنا ؟

كانت هى أيضا لاتتصور انها افترقت عنه منذ أكثر من عام . وكانت تتخيل انها كانت بالأمس فقط ــ ترتقى معه درجات السلم الى برج الكنيسة ، وأنها فى الأسبوع الماضى فقط تدثرت بأستار نافذة حجرتها واعتذرت لمربيتها عن تناول الطعام لأنها ذاهبة لتتزوج ليونيل ابن عمها .

ومع هذا .. فقد مضى على فراقهما أكثر من عام .. كان يبدو اكثر شحوبا وهزالا مما كان حين تركته وكان لايستطيع السيطرة على يديه المرتجفتين .. وكانت الأيام قد خطت أثارها حول عينيه لقد كان «ليونيل» آخر .

وتقدمت نحوه والرغبة تملؤها فى أن ترفع شعر رأسه المدلى على جبينه ــ كما كانت تفعل فى الأيام التى انقضت واندثرت .. ولكنها توقفت فى حنان وأجابته تقول :

ــ من أين جئت من لندن ؟ كنت هناك حتى مساء الأمس . قابلت والدتك ، ظنت اننى ذاهبة الى طوكيو .. لم استطع ان أبوح لها بعزمى على العودة الى الجزيرة .. فقد جئنا فى غواصة ورسونا عند بيتى بيجون بعد منتصف الليل بقليل ..

ــ القولين جئنا .. من جاء معك ؟ الا تدرين أن الالمان هنا ، فى كل مكان ؟

ــ بلى . أعرفك ذلك . ولهذا جئنا فى غواصة وفى سكون الليل وظلامه .. جاء معى رجلان .. الرائد فالنتين مورلاند والرقيب اليكسندر توريس . الرائد فالنتين فىهذه اللحظة يضع المتفجرات ويعد بعض الألعاب النارية عند باى دى لوندين .. والكسندر فى مكان بين بوان دى جوا وهنا . هل تذكر ترولن لانجلى.. بلا شك تذكره ، كان يقود القارب الذىأقلنا منالغواصة الى الشاطىء ثم قام بجولة استطلاعية وعاد ثانية الى الغواصة ، وموعدنا معه الليلة ثانية . وسيأتون الينا ــ ليس فى غواصة هذه المرة ــ بل فى سفينة خاصة .. فليس من السهل ان تدخل البقرة الى قلب الغواصة ..

انتفض ليونيل واقفا والحيرة بادية عليه ثم صرخ يقول :

ــ ماهذا الذى تقولينه ؟ ما صلة الغواصة بالبقرة ؟

ــ لقد جئنا لننقل فينوس الى لندن ، فهم لايريدون أن يستولى الالمان عليها ، والمشكل ــ كما اتضح لنا هذا الصباح ــ هو تعلق كابتن وايز بها حتى انه لا يتركها تغيب عن عينيه .. فها هى ذى فى مربضها بجوار القصر .

واشرقت الابتسامة على وجه نيكول قبل أن تقول :

ــ ومن هنا يبدأ دورك ..

ــ ماذا تقصدين ؟

ــ ما قلته تماما .. اننا فى حاجة الى معونتك .

ــ لا ادرى ماذا تطلبين ، ولكننى أؤكد لك اننى لن استخدم العنف مع اى مخلوق .. ولا حتى من اجلك ..

وسرعان ما اختفت الابتسامة من شفتيها قبل أن تقول :

ــ لا نطلب منك ماهو فوق قدرتك .

ثم استدارت واتجهت نحو النافذة وهى تقول :

ـ ص ما نريده منك أن تجعل من بقرة ما سنحضرها اليك صورة مطابقة تماما للبقرة فينوس بكل ما فيها من علامات مميزة وهذا ليس بالصعب عليك ولن تستخدم فيه سوى فرشاتك وأصباغك ..

وفى هذه اللحظات كان هناك من يحدق ـ بدهشة ظاهرة ـ فى قلب الغرفة من وراء أستار النافذة ، وبدا انه لم يصدق عينيه فاتى بحركة لفتت أنظار ليونيل اليه فدعا نيكول الى الانتقال الى المطبخ محذرا اياها من العيون المتطفلة .. وهناك تابعت حديثها تقول :

ـ أرجو الا تظن اننى فقدت عقلى .. لقد التقيت بالاب راعى الكنيسة ، واتفقنا معا على هذه الخطة فهذه هى الوسيلة الوحيدة لابعاد فينوس ، ووجود البقرة الثانية ـ بمكانها ـ على مدى النظر منه لا يمكنه من كشف الخدعة ـ اليوم على الأقل ـ حتى نتمكن من اخفاء فينوس الحقيقية قرب الشاطىء الى أن يحين موعد الرحيل ..

وفى عطف ومودة تناولت يديه بين يديها وهى تقول :

ـ اذا أردت أن تكون بعيدا عن هذه المغامرة .. فتأكد اننى أقدر رغبتك .

وبقيت الأيدى متشابكة ، والعيون متلاقية ، وما فى الفكر متشابه .. كل يريد أن تبقى صورة الآخر عالقة فى ذهنه .. أقوى ماتكون .. والى الأبد فهما يعلمان أن لقاءهما هذا قصير ؟ وأن فراقهما بعد ذلك ، لا يعلم الا الله مداه .

واذ توقف ما كان بينهما من حديث ، بعد أن فقدا موضوعه كان لابد أن يجدا شيئا يصلان به ما انقطع ..

ـ نيكول .. أسعيدة أنت بعودتك ؟

ـ من كل قلبى .. وبرغم كل ما قد يحدث ...

ـ وأنا أيضا ... كم أسعدنى حضورك ..

وانتفض فجـــاة وأسرع نحو مرسمه .. ثم عاد وهو يحمل صندوقا صغيرا ووضعه أمامه على المـائدة وأفرغ مافيه أمامهـا وهو يقول :

دعينا نلق نظرة على ما لدينـا من الوان .. الأبيض الصينى والبنى المجروق .. الاسود والأصفر .. أظنه يكفى ويفيض .. انها ما تبقى لدى بعد طلاء المنزل قبل أن يحل علينا هذا البلاء ..

ـ اذن فستعاوننى ياليو ..

ـ وهل كنت تتوقعين منى غير هذا .. لنبدأ العمل اذن ؟ أين البقرة الآن .. يحسن أن أعد بعض الكروكيات لفينوس أولا ..

ـ حسنا . والى أن تعد هذه الـكروكيات سأذهب أنا لأحضر لك البقرة الثانية من حظيرة مسز جويليمز ..

وعلت ضحكتها وهى تقول :

ـ ليو .. الا يبدو هــــذا مثيرا .. تماما كما كنـــا نفعل فى طفولتنا ..

ـ نعم .. حين كنـــا نلهو ونسعد معا .. نيــكول .. كونى حريصة .. واعتنى بنفسك .

الفصل الخامس عشر

كان جين ــ عضو مجلس البلاط في جزيرة أرمورال ــ في حوالي الستين من عمره ، اشتهر بين اهل الجزيرة ــ منذ الصغر بأنه اذا ما ذاق قطرة من الخمر ، اندفع في الشرب حتى يأتي على المخزون كله .. ويبقى مع ذلك شعوره بالظمأ ، ولهذا فقد عرف بين قومه «بالبرميل» .

ولكنه ــ والحقيقة تقال ــ لم يقرب الخمر منذ أقسم بهذا امام مجلس البلاط مساء اليوم الذي وطئت فيه أقدام الألمان أرض جزيرتهم الغالية ، هــــذا القسم الذي عاهدهم به ألا تمس شفتيه قطرة من الخمر ــ بعد تلك الليلة ــ حتى يعود السوزاريان وشقيقته الى الجزيرة .

وفي سبيل وفائه بهذا القسم ، قاسى جين الكثير وهو يقاوم الشيطان الذي كان يصرخ في داخله ، والجمرات التي كانت تأكل أحشاءه .. كم من مرة تراقصت زجاجة «البراندي» امام عينيه ؟ وكم من مرة سال لعابه ولعق شفتيه والشيطان يراوده ويغريه ؟ وكم من مرة انهــار وكاد ينزلق .. ولكنه كان في النهــاية دائما يتماسك ويصمد .. ويبقى وفيا ..

وفي صباح هذا اليوم الجميل من سبتمبر ، غادر داره كالمعتاد واتجه الى حيث كان يعمل .. وبينما هو يقطع الطريق بالقرب من «استامنت ديزانج» شــاهد جماعة من الجنود الألمان يجلسون حول المائدة التي كانت تتصدر المشرب .

وبرغم ان الوقت كان لايزال مبكرا .. فان زجاجه الخمر كانت

بتوسط مائدتهم ، وحين شاهد أحـــد الجنود جين العجوز يعبر الطريق صاح يدعوه ـ فى ســخرية ظاهرة ـ الى مشاركتهم فى كأس من هذه الخمرة المعتقة .

وفى هدوء وأدب اعتذر له جين ، وفى سكون تابع سيره ..

ولم يرض الجندى عن هذا الاعتذار ، وانتصب واقفا والغضب يملؤه وصرخ يأمر جين بالعودة :

وفى تثاقل ظاهر .. استدار جين ـ وقد اتجه بقلبه الى الله يسأله العون ـ وتقدم نحو الجندى الذى بادره يقول :

ـ حين دعوتك الى كأس من الشراب أجبتنى بلغة الباتوا .. وهذا أمر محرم ، كمـــا أنك أيضا رفضت دعوة جندى من جنود الرايخ العظيم .. وهذا أيضا أمر محرم .. وهـــانذا الآن أدعوك ـ للمرة الثانية ـ الى كأس ، فاذا رفضتها فسأشعر أن الواجب يحتم على أن أبلغ الرقيب فوجل انك تحتقر الجنود الألمان وتهينهم فى حديثك باللغة الأجنبية .

وفى سخرية لاذعة .. انحنى الجندى وهو يطـرق قدميـه بعضهما ببعض ويقول :

ـ جين .. هيا ، فاننى أدعوك الى كأس .

فرمقه جين بنظرة تكاد تنطق بما يعانيه من حقد وغيظ ، ثم استدار نحو البار وفى أسى بالغ توجه الى صديقه ومواطنه شارلز « عامل البار » يقول :

ـ سأشرب كأسا من الليمونادة مع هذه السيدة الألمانية .. نعم كأسا من الليمونادة .. هل سمعتنى عجل بحق السماء ..

ثم رفع جين الكأس الى شفتيه وهو يقول :

ـ أشرب نخبك أيها السادة .

وفى جرعة واحدة افرغ الـكأس فى جوفه ثم أسرع يغادر المكان وهو يستمطر اللعنات على هؤلاء الجنود وعلى اليوم الأسود الذى التقى بهم فيه .. فوق أرض جزيرته الغالية ..

وفي طريقه مر بمنزل مستر ليونيل ، وبلا تفكير أو وعى .. أو دافع ، اتجهت انظاره الى داخل المنزل ، فوقعت عيناه على ليونيل وهو واقف خلف النافذة المفتوحة لغرفة الاستقبال يحادث احدى السيدات ، فتمهل قليلا يمعن في النظر .. فكاد قلبه يتوقف وهو يرى من لا يمكن أن يخطئها أبدا .. انها مس نيكول ، شقيقة السوزاريان ، لقد عادت الى موطنها ، الى أهلها وعشيرتها ، وليس لهذا سوى سبب واحد ومعنى واحد ، أن النار قد خمدت والحرب قد انتهت والسلام قد عاد .. وانهم - أهل أرمورال - قد عادت اليهم حريتهم .. وليس للألمان عليهم بعد اليوم سلطان .

وبلا تفكير استدار جين واندفع يعدو نحو منزله ودفع الباب بقدمه دفعا وهو ينطلق كالقذيفة نحو الداخل الى حيث كانت ترقد « زجاجة البراندى » .. واذ كان قد طال انتظاره لهذه اللحظة ، وتحمل في سبيلها ما كان فوق طاقته وقدرته فقد رفع الزجاجة الى شفتيه مباشرة .. فما كانت الكأس لترويه وما كان يستطيع الانتظار حتى يأتى بها .. ولم تفارق الزجاجة فمه الا بعد أن عصرها عصرا .. وحينئذ .. طوح بها بعيدا ..

***

وقف ليونيل فاليز حيث كانت تربض البقرة فينوس وشرع يعد «الكروكيات» التى أراد أن يستعين بها في رسم العلامات المميزة لفينوس على البقرة الأخرى التى ستحضرها له نيكول .

ولم يستطع ليونيل - حتى وهو يعد هذه الكروكيات - أن يقاوم ما في نفسه من انطباعات فنية ، فأضاف الى اللوحة الأولى ما كان يظهر خلف البقرة من معالم الطبيعة الجميلة .. وبينما هو يضيف بعض الظلال الى اللوحة في مرحلة اعدادها الأخيرة ، شاهد الكابتن وايز قادما نحوه .

وفي أدب ظاهر ، بادره الكابتن وايز بتحية الصباح قبل أن يقول :

- أتسمح لى بمشاهدة هذه اللوحة ؟

ـ وما المانع يا سيدى ؟

ووقف وايز يمعن فى النظر فى اللوحة ويتفحصها من زواياها المختلفة ويقارن ما يراه بالأصل الذى نقل عنه ثم استدار ليونيل يقول :

ـ مستر فاليز .. عمل رائع يستحق التهنئة .

والحقيقة تقال ان إسلوبك قد تغير فى هذه اللوحة كثيرا .. ففيها من الواقعية والتناسق ، والتعبير الصادق ما كنت افتقده فى لوحاتك التى شاهدتها ..

وفى زهو تابع حديثه يقول :

ـ «وفينوس» فى هذه اللوحة .. بهذا الجمال لا يمكننى أن اخطئها وسط ألف لوحة أخرى ، ولكن .. لماذا رسمتها من الجانب الأيسر ، ألم يكن من الافضل أن ترسمها من الجانب الأيمن .. هناك تميزها علامة فوق كتفها .. تبدو كالنخلة ... ما كنت لأرسمها الا من الجانب الأيمن .

ثم علت ضحكة وهو يقول :

ـ اليس من الغريب أن ينقد الرجل العسكرى أعمال الفنان ؟

ـ الفنان ياسيدى يتقبل اقتراحات الرجل العسكرى بصدر وحب ..

ـ مستر ليونيل .. أتذكر انك وعدت باهدائى احدى لوحاتك؟

ـ ومازلت عند وعدى ياسيدى .

ـ اذن فيسعدنى أن تكون هذه اللوحة ... وان كنت افضل أن تكون للجانب الأيمن للبقرة .

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ ساضعها أمامى ، تذكرنى بفينوس وبالفنان الذى رسمها . انت تعلم طبعا ان السلطات فى برلين أمرت بنقل فينوس إلى المانيا ..

ـ ومتى يكون هذا ؟

ـ حين تتوفر وسيلة النقل .»

ـ أرجو الا يتم هـذا اليوم ، فالبحر كما نرى غير مستقر ولا يتفق والظروف التى تمر بها «فينوس» الآن .. يحسن الانتظار حتى تضع مولودها .»

***

وبلا خوف أو تردد اتجهت نيكول نحو مزرعة مستر جويليمز ، وكان الراعى ينتظرها عند انحناءة الطريق ، وحين التقيا ابتسمت نيكول وهى تقول :

ـ وافق لينول على اعداد ماطلبناه منه ..»

ـ لم اشك فى هذا .

وحين وصلا الى المزرعة ، أشـار الراعى الى احدى البقرات وهو يقول :

ـ هذه هى التى قصدتها .. وهى على وشك الوضع ايضا .» لخذيها وسأتولى أنا أمر مستر جويليمز .

***

كان جين جالسا فى غرفته فوق المقعـد وقد جحظت عيناه ، ومال رأسه فوق صدره ، وفى يده اليمنى زجاجة وفى اليسرى كأس كانت كلتاهما ـ منذ لحظات قليلة ـ مملوءتين .. وحين حاول أن ينهض واقفا ليأتى بزجاجة أخرى خانتـه ركبتاه وعجز عن الوقوف فتملكه الغضب وألقى بالكأس بعيدا .. ثم بالزجاجة وعلى الأرض امتزج زجاجهما المتناثر ، بعـد الحكم الذى وقعه عليهما ، حين تخليا عنه وفرغا من الشراب الذى أراده فيهما .

وبقى فى مكانه لحظات .. حتى تغلبت الرغبـة التى كانت تملأ نفسه ، على الضعف الذى كان قد حل بساقيه فاندفع يترنح ويتمايل .. يستند على هذا الجدار ، ويتعثر فوق الطريق ، وهو يسلك طريقه نحو «دايزنج» .

وحين اندفع نحو «البار» كانت جماعة الجنود قد شرعت فى مغادرة المكان ، فاخترق طريقه وسطهم وهو يصرخ ويقول :

ـ أيها السادة .. عودوا الى أماكنكم .. فلى حديث معكم ..

ثم انطلق ـ بلغته الوطنية ـ يوجه اليهم حديثاكان من الواضح انه مملوء بالقذف والسباب ، وفى هدوء نظر اليه احد الرقباء من طرف عينيه وهو يقول :

ـ أيها السكير العجوز .. أحذر ما تقول ..

ـ وماذا تملكون وقد انتهت الحرب ؟

ـ أحقيقة انتهت الحرب أيها المخمور ؟

ـ نعم .. وقد جاء دورى الآن لتشربوا معى ..

ثم استدار نحو عامل البار وهو يقول :

ـ شارل .. ست زجاجات من الليمونادة لهؤلاء السادة .. وسأشرب أنا .. زجاجة من البراندى . نعم . براندى ياشارل .. فسنشرب نخب السلام وعودة من نيكول فاليز الى أرموران .. لقد عادت ياشارل .. أتسمعنى ، لقد عادت مس نيكول ..

***

حين غادر الكاهن منزل مسز «جويليمز» توقف قليلا ودار بعينيه وسط المزرعة ، وابتسم حين تأكد أن نيكول قد ابتعدت بالبقرة .. وأن مسز جويليمز لم تلحظ شيئا .. فقد كان من أعسر الأمور أن يناقش امرأة مختلة العقل فى أمر يتطلب السرية والكتمان .

وفى الطريق شاهد فرانسوا زوجة شارل عامل البار تسرع نحوه فى فزع ورعب .. وحين التقت به ، صرخت تقول :

ـ أسرع بالله يا أبى .. انه لأمر مفزع .

ـ فرانسوا .. اهدئى .. ماذا حدث ؟

ـ أنه جين ياسيدى ، جين البرميل ، انه هناك فى «دايزيغ» وقد فقد رشده تماما .. أنه يصرخ ويرقص ويقول ان مس نيكول

لقد عادت الى ارمورال .. وان الحرب قد انتهت ، يؤكد يا أبى انه شاهد مس نيكول بنفسه هذا الصباح .

ـ هل هناك من سمعه يقول هذا ؟

ـ نعم يا أبى .. هناك الجنود الالمان .. وجين يصرخ فى وجوههم مدعيا ان الحرب قد انتهت وان شقيقة السوزاريان قد عادت .

كان من يشاهد الراعى فى هذه اللحظات لا يفوته ان يلاحظ ما كان يعانيه من آلام نفسية قاتلة .. تجعله يبدو فى ضعف عمره ومع ذلك فقد اجاب المرأة فى هدوء يقول :

ـ عودى الى «ديزانج» واطلبى من شارل ان ينتظرنى فى الحديقة الخلفية ، مريه أن يضرب بقسوة حين يشاهد جين خارجا معى ، نعم .. يجب أن تكون اللطمة من القوة بحيث تقفل فم جين تماما .

ـ ولكن يا أبى .. أنت تعرف شارل وتعلم قوته وأن ضربته قد تكون قاتلة ..

ـ اذن فستكون هذه هى ارادة الله ، مهماكانت النتيجة فيجب اسكات جين . اذهبى الآن يا بنيتى .

وسار الراعى فى طريقه ـ دون أن يشعر بأى قلق من الخطوة التى اعتزمها ، وهو يقدر أن الواجب هو الذى أملاها ، وان سلامة المجموعة تتطلب التضحية بفرد .. وبقلبه اتجه نحو الخالق يضرع اليه ، ويسأله أن يترفق بجين وأن يخفف من اصابته .

وحين توسط المكان ، كانت فرانسوا تقف خلف البار ، بعد أن خرج شارل من الباب الخلفى ، وكان الجنود قد احاطوا بجين يسخرون منه ، وهو فى وسطهم يملأ المكان صخبا وضجيجا .

واتجه الرجل الى جين ويرفق أمسك بيديه وهو يقول :

ـ جين .. أتعرفنى ! «جاك لوشمينو» !

ـ كلا . لست «جاك لوشمينو» .. انت كاهن ارمورال .. نعم أعرفك تماما فلا تحاول خداعى .

ـ حسنا ياجين .. انا كاهن ارمورال .. هلا جئت معى ..

قالها وهو يقوده نحو الباب ، سالكا طريقه وسط الجنود ، وحين غادر المكان استدار الى اليمين وتابع طريقه الى حيث كان شارل ينتظر .. وحين هوت الهراوة التى كان يحملها شارل فى يده .. ندت عن جين صرخة حادة ، وتهاوى فوق ركبتيه ثم ارتمى على جانبه وقد سكنت حركته .

***

انهمك ليونيل فى عمله ، وهو يراجع ـ بين الحين والآخر ما انجزه من عمل على اللوحة التى كان قد اعدها .. واخيرا نادى بيكول لتشاهد البقرة وهو يقول :

ـ ما رأيك فيها الآن ..؟

ـ رائع .. ما كان بيكاسو ليحقق مثل هذه النتائج .

ـ انه يوم مشحون بالاثارة . انت هنا الى جوارى ، وانا اعمل بفرشاتى على جلد بقرة .. والقبطان يريد منى هذه اللوحة .

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ متى يتم استبدال البقرتين ؟ واين ستخفين فينوس ؟

ـ لم استقر بعد على مكان معين ، وقد اقترح الأب اكثر من مكان ولكننى افضل التروى قليلا فى الاختيار .

ـ مارايك لو احضرناها الى منزلى . انه المكان الذى لايخطر على بال مخلوق ان يبحث فيه ، ولو حدث .. فمن الخير أن يجدوها هنا ، لا ان يجدوها فى اى مكان آخر .

ـ لا اريد ان يتحمل اى فرد من اهل الجزيرة تبعة العمل الذى سنقدم عليه ، لذا فاننى اقبل اقتراحك وسأنقلها الى هنا ، اذا وعدت ان ترافقنا فى رحلة العودة الى لندن هذا المساء .

ـ نيكول .. يصعب على ان اجيبك فى الحال .. امهلينى بعض الوقت ، ولا تخشى شيئا .

الفصل السادس عشر

جلس عامل اللاسلكى - فى القسم المخصص لمكتب الاشارة بالطابق السفلى من مبنى وزارة الحرب - الى جهازه قبل الموعد المحدود للاتصال بجزيرة أرمورال بدقائق . وبدأ الاتصال بينهما بالعبارات التقليدية الخاصة بضبط المحطات والتـأكد من تمام الاتصال ثم شرع الرقيب فوريس يملى رسالته :

وقبل أن تمضى دقائق معدودات كان هنـاك من يطرق باب الحجرة رقم ٥٧ ، وحين سمح له بالدخول أدى التحية وسلم العم جورج رسالة كان يحملها من مكتب الاشارة ثم انصرف عائداً .

وفتح العم جورج الرسالة اللاسلكية وقرأ فيها مايلى :

« الى العم جورج ..

من فالنتين ..

جميعنا - الأربعة - بخير . اكرر «الأربعة» أرى لزاما على أن أبلغ عن وجود مدمرة الجيب «لوبوك» فى الميناء . تقلقنى حالة البريمادونه . اذا أردتم أن نتابع العملية أقترح ترتيبات طيبة خاصة لها . سنعاود الاتصال فى تمام الثالثة ولن يقلقنا ما قد ترون اتخاذه من اجراءات أمن » .

وفى هدوء أعاد العم جورج الرسـالة الى المظروف وابتسم ابتسامة الرضا والاطمئنان وهو يرى خطته تسير كما قدر لها تماما ..

واذ رأى نظرة الدهشة التى ارتسمت على وجه سكرتيرته ناولها الرسالة وهو يقول :

- انها من فالنتين . اترغبين فى الاطلاع عليها ؟

- نعم .. اذا سمحت .

كانت تعمل فى خدمة العم جورج منذ سنوات طويلة ، وكانت تعرف طباعه وعاداته . وفى أيام السلم وفى وقت الحرب ، لم تعرف فيه سوى الرجل الصلب الذى لايستكين ولا ينحرف عن

الاهداف التي يرسمها لنفسه . وكان كلّ من يعملَ معه من الرجال أو السيدات يعرف هذا عنه تمام المعرفة . كانوا يذهبون ــ فرادى أو فى جماعات صغيرة ــ لقضاء المهام التى يكلفهم اياها ــ بلا تردد أو مناقشة ــ وكلهم على ثقة من انهم يؤدون واجبا تتطلب المصلحة العليا اداءه ، وان كان الموت يتربص بهم فى كل خطوة يخطونها .

وما أن أتمت مس براون قراءة البرقية حتى بادرت العم جورج قائلة :

ــ انه لمن سوء الطالع أن توجد هذه المدمرة في مياه الجزيرة اليوم ..

ثم توقفت قليلا قبل أن تقول :

ــ هل تريد الاتصال ببورتسموث الآن ؟

ــ ولماذا .. ؟

ونظرت اليه فى دهشة بالغة ــ كما لو أنها فوجئت بهذا الرد ، ثم قالت :

ــ لاشك أنك تريد الغاء قيام الباخرة التى ستلتقطهم الليلة .

ــ لا . لا أريد هذا .

واستغرق فى التفكير قليلا قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ــ منذ متى وأنت تعملين معى ؟

ــ منذ سنوات طويلة .. تكفى أن تجعلنى أحكم بأنك لن تضحى بإحدى السفن ومن فيها من رجال لانقاذ حياة رجلين وامرأة .. وبقرة ..

وارتسمت الابتسامة على وجه العم جورج قبل أن يقول :

ــ هذا صحيح .. هل قرأت ماقاله كبلنج «بكاء الطفل يثير شهية النمر» .

ــ نعم .. ولكن ما علاقة هذا بموضوعنا ؟

ــ الا تحملك هذه العبارة على التفكير قليلا فى معناها ؟

ــ مازلت لا أفهم شيئا .

ــ سأزيد الأمر وضوحا .. «اختطاف البقرة يثير شهية المدمرة» .. هل فهمت الآن ؟

وحين تبينت مس براون ما يعنيه العم جورج تماما ، أصابتها

الدهشة وشعرت أنها مازالت أعجز من أن تفهم هذا الرجل - برغم علاقتها الطويلة به .

وفى صوت الشاعر بذنبه ، المعترف بعجزه .. سألته :

- نعم . انها أحدث القطع البحرية الألمانية ، فائقة السرعة قوية التسليح وهى الآن فى ارمورال فى مهمة سرية .

وتوقف قليلا .. واستغرق فى تفكير عميق قبل ان يقول :

- أنها ترسو فى خليج « هافردي مويت » وهو خليج مغلق يوفر الأمن والسلامة لها ، وستبقى كذلك ما لم تخرج الى عرض البحر .. وحينئذ ستكون لقمة سائغة لطائراتنا التى تترقبها وتتربص بها .. بعيدا عن الجزيرة وسكانها .

- وكيف وصل الى علمك نبأ وجودها هناك ؟ .

- انني أتتبع أنباءها منذ غادرت ميناء كييل فى الأسبوع الماضي .

- ولماذا اذن لم تخبر الرائد فالنتين بأمر هذه المدمرة .. اكان الوضع يختلف - لو أنه عرف حقيقة الموقف .

- نعم .. كان سيختلف كثيرا ، تعلمين انه كان راغبا عن سفر فاليز معه ، وهو رجل رقيق الاحساس .. وخاصة مع النساء ، ولا يميل الى تعريضهن للأخطار ، ولما كانت مس فاليز من العوامل الرئيسية لنجاحه في مهمته كان لابد أن أخفى عنه ما قد يزيده اصرارا على رفض صحبتها له .

- اذن فقد جعلته يعتقد أن مهمته هى نقل البقرة فينوس الى لندن .. بينما تدبر انت هنا أمر اغراق المدمرة اوبوك ..

- الى حد ما .. فاننا نريد البقرة ايضا .

- هل اكتب الرد على رسالة الرائد فالنتين ؟ ..

- نعم .. وعجلى بها ..

وفى الموعد المحدود .. كان فالنتين يتلقى رسالة العم جورج التى قال فيها :

« سيتم الأمر كما خطط له .. بلا تغيير » .

وفى نفس الوقت الذى تلقى فيه فالنتين هذه الرسالة كان العم جورج يجرى الاتصال بفرع المخابرات بقيادة السلاح الجوى . لتاكيد موعد مهمة كان قد سبق الاتفاق على تفاصيلها ..

الفصل السابع عشر

كانت الأمنية التى تمناها كل من فالنتين ونيكول حين شاهدا النجم يسقط محترقا فى كبد السماء — ماتزال تؤتى ثمارها .. وكان الحظ ماانفك يعمل فى جانب المجموعة .

ففى هذا اليوم — بالذات — تكدست الأوراق على مكتب الكابتن وايز ، وكثر رنين جرس التليفون يدعوه لاتصالات لاسلكية عاجلة مع قيادته فى نيوجرسى .. وبذا تأخر فى مكتبه عن الموعد الذى اعتاد أن يتناول فيه طعام الغداء مع ضباطه ، وبهذا التأخير، فاته أن يستمع الى حديث كان يدور بين بعض رجاله ، لو أنه استمع اليه لأمر فى الحال باجراء تحقيق دقيق .

كان أحد الضباط — من الذين وفدوا أخيرا على الجزيرة للخدمة بها — يحادث زميلا له عن فتاة جميلة قيل أنها ظهرت فى الجزيرة هذا الصباح — وأشيع أنها كانت تلوح بيدها للجنود موحية مهللة ، فأجابه زميله الذى كان يعرف الجزيرة وأهلها — بأن الجنود — تحت حكم الظروف التى يعيشونها والحرمان الذى يقاسونه يجسدون مثل هذه الأمور ويبالغون فى تصويرها .. وأن الجزيرة كما يعلم لاتوجد فيها مثل هذه الفتاة .

وحين وصل الكابتن وايز الى « الميس » — كان الضباط قد غادروه كل الى سبيله .. وعلى ذلك فقد فاته هذا الحديث .
وحين عاد الى مكتبه تلقى رسالة برقية تفيد بأن باخرة نقل خاصة ستغادر جيرونس اليوم وتصل الى الجزيرة فى تمام السادسة من هذا المساء لتنقل البقرة فينوس الى ميناء سان بيتر .. وكان فى وصول هذه البرقية ما أثار ضيق وايز وقلقه فهو يعلم أن

البقرة قد تضع مولودها بين لحظة وأخرى ، وأن نقلها بحرا في مثل هذه الظروف قد يصيبها بضرر •

وسرعان ما اتصل بقيادته لاسلكيا ، يحاول أن يوضح الموقف وأن يؤجل الموعد ولكن السلطات كانت قد قررت أن تتخذ من هذه البقرة موضوعا للدعاية واتخذت لهذا الغرض الترتيبات التي تبرز وصولها الى المانيا وتبين الاستقبال الحافل الذي يعد لها •• وقد تكاتفت في هذا السبيل جميع وسائل الدعاية والأعلام • ولم يستطع وايز الا أن يمتثل للامر وان يستعد لتنفيذه ، فأرسل يدعو « الاركان حرب » لتلقي تعليماته الأخيرة في هذا الشأن ••

ـ لقد تلقيت تعليمات القيادة في نيوجرسي لنقل البقرة فينوس الى المانيا • وقد تقرر أن يتم هذا الليلة وستصل الباخرة في المساء ، وبلغ تعليماتك الى بابتست الذي يتولى رعايتها ليصحبها الى الميناء لتكون هناك قبل الساعة السادسة •

ثم توقف قليلا قبل أن يقول :

ـ حاولت أن أمنع سفرها بالذات ، ولكنهم هناك ارادوا أن يجعلوا من وصولها الى المانيا موضوعا للدعاية .. ويبدو انهم قد استعدوا لهذا الغرض استعدادا كبيرا ••

ـ أرجو ألا تفتقدها كثيرا يا سيدي ••

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى قبل أن يقول :

ـ وعلى كل ففي الجزيرة الآن فينوس أخرى تستحق أن تنال منكم بعض هذه الرعاية •

ـ فينوس أخرى ••! ماذا تعني ••؟

ـ انها ليست بقرة •• بل فتاة بارعة الجمال يا سيدي ••

ـ فتاة بارعة الجمال ••! من تكون ؟

ـ هذا ما حاولت أن أعرفه •• ولكن لا أحد هنا يدري ، لقد رآها كل رجل في فصيلة هملر وهم في طريقهم الى منطقة العمل هذا الصباح •• ولكنهم جميعا لا يعلمون عنها شيئا ••

فانفجر الكابتن وايز يصرخ فى وجه الضابط ويقول :
ـ لماذا لم أبلغ هذا قبل الآن ؟

ـ لم أجد فى هذا الأمر ما يستحق التبليغ .. ولكن الجديد هو ما جئت الآن أبلغ عنه ..
ـ وما هو ؟ .

ـ قبيل الظهر بقليل كان بعض الجنود يتناولون القهوة فى « ديزانج » حين دخل جين ـ هذا الرجل المسن عضو مجلس البلاط ـ وكان فى حالة سكر بين .. وأخذ يصرخ ويرقص ويغنى ويتفوه بعبارات غريبة منها قوله أنه رأى مس نيكول شقيقة السوزاريان ..

ثم توقف الضابط قليلا وقد تنبه فجأة الى أمر كان قد فاته حتى هذه اللحظة وقال :
ـ ايمكن أن يكون ؟ .
ـ أخيرا بدأت تفهم أيها الغبى ..

ـ قلما يهتم الجنود يا سيدى بما يسمعون .. كما أن الرجل كان مخمورا وبدا كما لو أنه كان يهذى ..
ـ وأين جين هذا الآن ؟ .
ـ لقد جاء راعى الكنيسة ليصحبه وخرجا معا ..

ـ ابحث عنه وآت به الى هنا فى الحال .. مهما كانت حالته ارسل الرقيب فوجل الى «ديزانج» ليبحث عن ضباط الصف والجنود الذين كانوا هناك وسمعوا ما قاله جين ، وسأتولى بنفسى أمر استجوابهم .. كل على حدة .. وأخيرا أريد استدعاء الكاهن ايضا .. فسيكون لى حديث معه بعد استجواب الجنود ..

وأسرع الكابتن وايز بعد ذلك يغادر مكتبه واندفع نحو سلم القصر وشرع يتخطى درجاته قفزا وتوقف لحظات قصيرة أمام احدى الحجرات ، ثم دفع الباب بقدمه دفعا ، وأخذ يقلب ما فيها رأسا على عقب بحثا عن شيء معين رأى أنه سيكون سبيله لاستجلاء

الحقيقة .. وحين عثر على ضالته المنشودة ـ وكان صورة لفتاة جميلة فى ريعان الشباب ، وعليها اهداء كتب بخط رقيق جميل يقول : « من نيكول الى لوك .. يونية ١٩٣٩ » ـ غادر الحجرة فى هدوء عائدا الى مكتبه .

وبدأ الكابتن وايز استجوابه للجنود بسؤال ضابط الصف :

ـ فى اثناء عودة رتل الجنود الى المعسكر هذا الصباح .. هل حدث انكم شاهدتم سيدة فى مقتبل العمر تعبر الطريق ؟.

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل هذه الشابة معروفة لك ؟

ـ لا ياسيدى .

ـ الم ترها من قبل ؟

ـ نعم ياسيدى . لم يسبق أن وقعت عليها عيناى .

ـ هل فى مقدورك أن تتعرف عليها اذا شاهدتها ثانية ؟ .

ـ بكل تأكيد يا سيدى ..

فعرض الكابتن وايز الصورة الفوتوغرافية على الرقيب شنايدر وهو يقول :

ـ هل شاهدت هذه السيدة من قبل ؟

فأمعن الجندى فى النظر فى الصورة قليلا ثم صاح يقول :

ـ انها من شاهدناها هذا الصباح يا سيدى .

ـ أواثق انت مما تقول ؟

ـ كل الثقة يا سيدى .. صحيح انها لم تكن ترتدى مثل هذا الثوب .. ولكنها صورتها بلا شك ..

ـ ايها الغبى .. أكنت تنتظر منها ان ترتدى هذا الثوب اليوم أيضا ، اغرب عن وجهى وانتظر فى الخارج .

وجاء بعد الرقيب شنايدر جنديان اكدا نفس ما قاله وتعرفا فى الحال على نفس الصورة . وجاء ثالث راوده الشك قليلا ثم عاد

وأكد انها نفس السيدة وان كانت لا تضع هذه الوردة فى شعرها . وهكذا باقى الجنود .

وقبل أن ينتهى الاستجواب قدم الرقيب فوجل يقول :

ــ لقد وجدت الرجل يا سيدى ..

ــ وأين هو .. لماذا لم تحضره الى هنا كما امرتك ؟

ــ يتعذر هذا يا سيدى ، فهو يرقد الآن فاقد الوعى تماما فى احدى الغرف الخارجية لمبنى « ديزانج » .

ــ أمخمور هو الى هذا الحد ؟ .

ــ لا ياسيدى .. انه مصـــاب بجرح غائر فى مؤخرة الرأس .

ولم يتمالك الكابتن وايز نفسه ، ولم يستطع أن يسمع اكثر مما سمع .. وبما بدا من حركات يديه ، وتقلصات وجهه وصوته المرتجف كان واضحا انه ــ فى هذه اللحظة وعند هذا الحد ــ قد فقد سيطرته على نفسه تماما .

وتوالت تعليماته الى أركان حربه بمضاعفة عدد الحراس والأمر باحتلالهم مراكزهم فى الحال ــ واعلان الطوارىء بين القوات ــ واستعدادها بالنيران لمواجهة اى موقف يطرا ، وتفتيش كل منزل فى الجزيرة ، واعتقال الراعى واعضاء مجلس البلاط وحظر التجوال فى انحاء الجزيرة و ... و ... و ...

واخيرا سقط على مقعده وهو يقول :

ــ والآن .. جاء دور هذا الكاهن ..

***

كانت الشـمس قد توسطت كبد السماء ، حين القت نبـكول نظرة على ساعتها ــ قد تكون للمرة المائة خلال فترة وجيزة ــ وبصوت مرتجف قالت :

ــ اظن انه من الافضل أن اذهب الآن ..

فأجابها ليونيل فاليز بصوت أشد رجفة :

ـ اكره أن تفعلى أنت هذا ..»
ـ أنا ايضا اكره هذا العمل .. ولكن يتحتم أن اقوم به ..»
ـ اليس من الافضل ان أذهب بها أنا بدلا منك ؟ .
ـ ذهابى أنا لن يلفت الانظار ، امرأة تقود بقرة .. أمر معتاد ..
أما ان يقودها ليونيل فاليز .. فامر غير مألوف ولا شك أنه سيثير الشبهات ..

وهكذا خرجت نيكول وهى تقود البقرة ـ بديلة فينوس ـ بعد أن أتم ليونيل عمله ـ وجعلها صورة مطابقة لها تماما ـ وفى ظلال شجرة وارفة كانت لا تبعد كثيرا عن المكان الذى كانت « فينوس » ترعى فيه ـ تركت نيكول البقرة البديلة وفى سكون اتجهت نحو « فينوس » وهى ترقب القصر ونوافذه بحذر وعناية .

وكما أوضحنا كان الكابتن وايز فى شغل شاغل هذا اليوم الهاه عن متابعة فينوس بنظراته بين الحين والآخر كما كان يفعل عادة .. اما عن الحراس فما كان ليعنيهم كثيرا أمر بقرة تذهب وأخرى تأتى .. ولهذا فقد أتمت نيكول استبدال البقرتين فى سلام ، ووصلت فينوس الى منزل نيكول بلا متاعب .

***

كان الكابتن وايز يجلس الى مكتبه موليا ظهره نحو النافذة ، وأمامه كان كاهن ارموڤال يقف منتصب القامة رافع الرأس .. ويقول :

ـ هل أرسلت فى طلبى يا سيدى القومندان ؟ .
ـ نعم ..

ورمقه وايز بنظرة فاحصة مملوءة بالحقد والكراهية وهو يقول :

ـ أريد منك ايضاحا عاجلا لأمرين أثارا شكوكى اليوم .. الأول وجود سيدة شابة شوهدت صباح اليوم فى الطريق وهى تلوح بيدها للجنود .. من تكون هذه السيدة ؟ . وأين هى الآن ؟ .

لم يبد على وجه الراعى ما يكشف علمه بأمر هذه السيدة وبقى صامدا لا يهتز .. وفى هدوء أجاب يقول :

ـ لابد أن هناك خطأ ما .. فنساء الجزيرة يتنقلن فيها طول اليوم .

ـ أهذا كل ما لديك لتقوله ؟ .

ـ نعم يا سيدى .. فليس لدى ما يستحق القول ..

ـ فليكن ما تقول ، سأنتقل اذن الى الأمر الثانى ..

ـ بلا شك تعرف جين عضو مجلس البلاط .. لقد كنت آخر من شوهد معه وهو يغادر « ديزانج » منذ ساعات ، وقد وجدناه منذ ساعة يرقد فى حجرة من حجرات المطعم الخارجية مصابا فى اسفل رأسه بجرح غائر ، وهو فاقد الوعى تماما ..

وتوقف وهو يرمق الراعى بنفس نظراته النارية قبل أن يقول :

ـ لماذا ياسيدى الأب .. راعى ارمورال ، تطلب الأمر اسكاته الى هذا الحد ؟ .

ـ لا أدرى يا سيدى شيئا عن هذا الأمر وبالتالى فلا ايضاح لدى أقدمه ..

ـ أليس هناك ما يربط بين هذه السيدة التى شوهدت صباح اليوم والاعتداء الذى وقع على جين ؟ .

ـ لا أظن ذلك ..

ـ أهذا كل ما لديك ؟ .

ـ نعم ..

ـ هل أوضح لك انا الأمر ؟

ـ تفضل يا سيدى ..

وتمهل وايز قليلا قبل أن يقول فى تشف ظاهر :

ـ السيدة الغريبة هى مس نيكول فاليز شقيقة السوزاريان الغائب .

وتوقف القومندان يتفحص آثار هذا التصريح على وجه الراعى الجامد الذى لا يختلج .. قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ـ لقد جاءت الى الجزيرة سرا ، ومن المحتمل ـ بل الاكثر الى الصواب ـ انها لم تأت وحدها .

والتقط وايز الصورة الفوتوغرافية ورفعها الى عيني الكاهن وهو يقول :

ـ أليست هذه صورة مس فاليز ؟ .

فأنعم الراعي النظر في الصورة قليلا ثم قال :

ـ انها صورة مس نيكول يا سيدي .

ـ انها ايضا السيدة التي أتحدث عنها والتي شوهدت في الجزيرة صباح اليوم .. وقد تعرف الجنود الذين رأوها في الصباح على صورتها حين عرضت عليهم .. أتريد برهانا آخر يا سيدي الراعي .

ـ ... ...

ـ لقد شاهدها أيضا جين العجوز المسكين .. واذ كان مخمورا في « ديزانج » هذا الصباح ، لم يستطع السيطرة على نفسه ولا التحكم في لسانه .. ولهذا تحتم اسكاته ولو الى الأبد ..

ونهض القومندان واقترب من الراعي وفي صوت حاد ثائر صاح مهددا الكاهن :

ـ اذا مات جين .. فستلقى نفس المصير انت ومن اشترك معك ، فالجزاء من جنس العمل ..

وفي هذه اللحظة علا رنين جرس التليفون فالتقط القومندان السماعة ولم تمض لحظات حتى صاح يقول :

ـ ماذا تقول .. مسز جويليمز تبلغ عن ماذا ؟ . سرقة احدى بقراتها .. تريد ماذا .. أن أقوم انا الكابتن وايز حاكم الجزيرة .. بالبحث عن البقرة المفقودة .. هذا جميل .. الا ترى ان أخلي جنود الحامية من واجباتهم واطلقهم وراء هذه البقرة ؟ .

وفي غضب ظاهر ألقى القومندان بالسماعة واستدار نحو الراعي ، وفي حركة تمثيلية مفتعلة ، وفي سخرية ظاهرة وتشف بالغ بادره يقول :

ـ والآن يا سيدي الراعي المبجل .. أين مس فاليز ؟ . لماذا وجودها في الجزيرة الآن .. ما هي أهدافها ؟ .. ومن جاء معها ؟ ..

وفي وقفته مواجها النافذة ، ومن خلف ظهر الكابتن ١٠از ..
شاهد الراعي ـ في هذه اللحظة ـ نيكول تسير فوق العشب عارية القدمين وهي تقود البقرة فينوس خلفها .. متجهة بهـا نحو منزل ليونيل .. وبقى الكاهن صامتا لا تكشف خلجات وجهه عما يراه أمامه ، وحين ابتعدت نيكول تماما أجاب القومندان بقوله :

ـ لا أملك الاجابة عن سؤالك يا سيدى ..

ـ استمع الى .. الجزيرة محاطة بالحراس .. وما من سبيل أمام مس فالنز للهـرب ، الا ترى أنه من الأفضــل أن تفضى الى بالحقيقة ..

وبقى الكاهن على صمته ، وقد استغرق فى تفكير عميق .. دوامة طاحنة كادت تعصر ذهنه وتكتم أنفاسه .. فكر فى كل شىء .. فكر فى شعب الجزيرة الذى أسلم له قياده .. وفى السوزاريان الذى وكل اليه أمور هذا الشعب ، وفى زوجتـــه وفى نفسه .. ولكنه لم يفكر أبدا فى أن يخون الأمانة أو أن يشى بمن وثقوا به ..

وفى هدوء أجاب القومندان يقول :

ـ ليس لدى ما أقوله يا سيدى ..

ـ حسنا ، مادامت هذه رغبتك ..

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ سآمر بالقبض عليك .. ولن تغادر هذا القصر ..

ـ الأمر ما تراه يا سيدى .

***

خيل الى نيكول ـ حين وصلت الى الباب الخلفى لمنزل ليونيل ـ انها قطعت هذه المسافة فى ساعات لا فى دقائق .

وحين اغلق ليونيل الباب خلف البقرة ، ارتمت نيكول على الارض وهى تقول فى صوت واهن :

ـ لم اتصور أبدا أننى على هذا القدر من الجبن والخوف ..

ثم تمالكت أنفاسها قليلا وهى تقول :

ـ لا أظن أن فينوس فى حالة طيبة .. إخشى أن الأمر لن يزيد على ساعات ..

الفصل الثامن عشر

في تمام الساعة الخامسة ، غادر بابتست كوخه .. كان الراعى قد لقنه ما سيفعله وكان هو قد اعتاد أن ينفذ ما يوكله اليه الراعى بلا مناقشة .

ووصل الى المرعى خلف قصر الحاكم ، حيث كان قد ترك البقرة فى الصباح .. وحين وقف الى جوارها أخذ يتفحصها بعينيه المدققتين .. ثم انفجر ضاحكا من كل قلبه .. فللمرة الأولى - منذ وقع نظره على القومندان وهو يداعب فينوس - يشعر بالاطمئنان على بقرته الغالية ، وبالسعادة للنتيجة التى حققها ليونيل .. سيقود هذه البقرة الى الميناء ، وسينقلونها الى ألمانيا وسيقعون فى الشرك الذى نصب لهم بعناية .. فهذه هى ارادة الله .. وعلى الباغى تدور الدوائر .

والتقط بابتست الحبل وتقدم يسلك طريقه ، والبقرة تسير خلفه فى استسلام بالغ الحد .. وبرغم انه احس أن أمورا غير معتادة تحدث فى الجزيرة ، ولاحظ أن الجنود ينتشرون فى كل مكان .. فقد تقدم وهو لا يخشى شيئا ..

وعند مقر القيادة اعترضه حارس فى غلظة وخشونة وهو يقول :

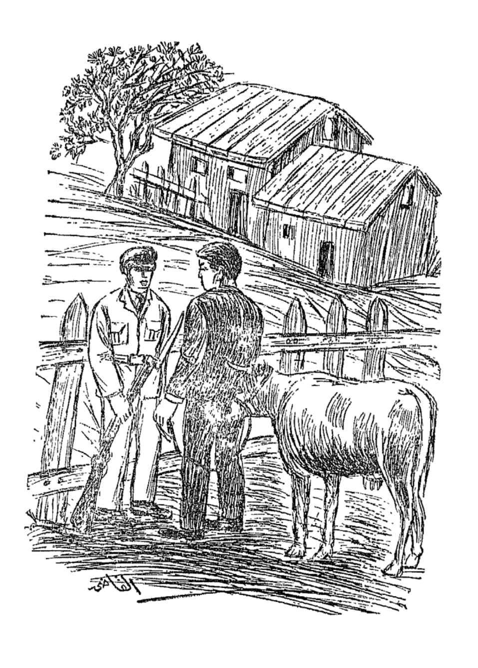
- الى أين انت ذاهب ؟ .

- تلقيت التعليمات بنقل هذه البقرة الى الميناء ..

- من امرك بهذا ؟ .

- انها تعليمات القومندان .. بلغ راعى الكنيسة اياها ..

- هكذا .. ولماذا ذهاب البقرة الى الميناء ؟



وفى دهشة نظر بابتست الى الحارس قبل أن يقول :

ـ أنا مثلك ياولدى .. لا أناقش ما يصدر الى من تعليمات »

ومال بابتست على أذن الحارس كمن يسر له ما خاله أمرا خطيرا وقال :

ـ هذه هى البقرة فينوس .. انها فى طريقها الى المانيا ، الا تعلم هذا ؟ .

فابتسم الحارس للمرة الأولى وهو يربت على ظهر بابتست ويقول :

ـ بلى .. اذكر شيئا كهذا .. هيا تقدم .. اسرع حتى لا تتاخر عن موعدك ..

ـ شكرا يا ولدى .. شكرا ..

وتابع بابتست تقدمه .. وفى قرارة نفسه كان يقول :

« لقد كذبت على هذا الحارس .. ولا شك سالقى جزائى .. ولكن ، هل يحاسبنى الله على كذبة بيضاء .. اذا أراد الله أن أنال جزاء فلتكن مشيئته اذن » .

نظر الكابتن وايز الى ساعته ونهض واقفا وهو يقول للملازم مولر :

ـ ساذهب الآن الى الميناء فقد حان موعد شحن البقرة ..

وفى الطريق التقى بالحارس فأخبره بأمر البقرة فينوس وكلافها بابتست ، فأكد له وايز أن الأمر تم بناء على تعليماته الشخصية ..

وحين وصل وايز الى الربوة العالية التى تشرف على الميناء شاهد سفينة الشحن الالمانية واقفة فى الانتظار على يمين المدمرة لوبوك .. وعلى الرصيف شاهد البقرة وكلافها وسط جمع من بحارة السفينة : يحاولون دفعها الى قلب الصندوق الذى سينقلها الى ظهر السفينة .. فأسرع يعدو عدوا نحوهم وهو يصيح يحذرهم ويأمرهم بالانتظار .

وحين راى بابتست القومندان .. استشعر الخطر القادم وحاول أن يثنى عامل الرافعة عن التوقف وصاح يقول للقومندان :

ـ ارجوك يا سيدى لا تحاول الاقتراب .. سيتم كل شيء على احسن حال .. اصوات الرافعة تثير البقرة واخشى أن يصيبك بمكروه ..

وارتفعت الرافعة تحمل البقـرة وبابتسنت الى جوارها فى الصندوق .. ووصل القومندان الى رصيف الشحن .. واذ لم يستطع الانتظار اسرع يتخطى درجات سلم الباخرة قفـزا ، وفى اللحظة التى وطئت أقدام البقرة سطح السفينة كان وايز يقف الى جوارها يربت عليها ويتأكد من سلامتها ..

ولدهشته ـ لاحظ أصباغا تلطخ يديه ـ ومن نظـرة سريعة خاطفة القاها على البقرة اكتشف الخدعة تماما .

ولم يتردد وايز لحظة واحدة .. وسرعان ما أمر باعادة البقرة الى الشاطىء من جديد واتجه الى بابتست ولطمه على وجهه فى غيظ وحقد وهو يقول :

ـ اذن فأنت تحاول أن تجعل منى أضحوكة يتندرون بها فى المانيا ..

ـ ... .

ـ أحداث غريبة تجرى اليوم فى الجزيرة .. ولكن العبرة بمن يضحك اخيرا ..

وانفجر فجأة يصرخ ويقول :

ـ هذه المخلوقة المصبوغة .. ليست فينوس .. انها ليست فينوس .. ليست فينوس ..

***

واخيرا بدأت خيوط الغسق تنشر ظلالها فوق الجزيرة ، وبدأت الطيور تؤوب الى أوكارها .. وانتشرت غلالات الدخان فوق الدور صاعدة من مداخنها ممزوجة برائحة الخشب الذى كان يحترق فى مواقد الطعام .

وفي هذه اللحظات .. كان فالنتين مورلاند يرقد في اقلب دغل الثيف ، قريب من الطريق المؤدى الى « بوان دى جوا » .. وهو ينعم النظر فيما حوله بقلق ظاهر .

وفي رشاقة الهندى الأحمر تحسس الكسندر فوريس طريقه الى داخل الدغل ، وفي هدوء رقد الى جوار فالنتين ..

ـ اليكس .. مرحبا بك ..

ـ مرحبا بك يا سيدى ..

ـ تجرى في الجزيرة الآن امور تثير الشك .

ـ ماذا حدث ؟ .

ـ لا أعرف تماما .. ولكنهم يطوقون الجزيرة بالحراس ويسدون كل المسالك .. لقد ذهب راعى الكنيسة الى قصر الحاكم منذ ساعات ولم يعد الى داره حتى الآن .. وبالمناسبة لقد قمت بقطع الخط التليفونى الممتد الى « بوان دى جوا » .

ثم توقف قليلا واستدرك كمن فاته أمر مهم .. وهو يقول :

ـ ولكن .. أين مس فاليز ؟ .

ـ لم تأت بعد .. كم أشعر بالقلق عليها ..

ـ أقدر شعورك هذا يا سيدى ..

ـ لقد حملتها ما ينوء به كاهل الرجال ..

ـ ما كان في مقدورك غير هذا .. وبدونها ما كنا لنستطيع شيئا ..

ـ اذا أصابها مكروه .. فلا أدرى ماذا أفعل ..

ـ لماذا تفكيرك هذا ، لماذا تتوقع الشر قبل وقوعه ؟

وكما لو انه أراد أن يغير موضوع الحديث قال :

ـ الريح تهب من الجنوب الغربى .. وسيكون المد مناسبا لعودتنا الليلة .

واذ لم يتلق اجابة من فالنتين ، بادره يقول :

ـ قلت ان المد سيكون مناسبا لرحلة العودة ..

ـ سمعت ما قلت يا اليكس .. وددت فقط لو أنها عادت مسرعة ..

ـ وماذا لو انها لم تعد ؟

ـ لن أغادر الجزيرة بدونها ..

ـ ومن قال اننا سنفعل هذا ؟ »

ـ أعنيت حقا ماقلته يا السكس ؟

ـ أو كنت تتوقع مني غير هذا ؟ ».

وسادهما الصمت من جديد ، وبدأت خيوط الظلام تزداد كثافة .. واخذت اصوات الطيور تخفت وتتلاشى .

***

وعاد الكابتن وايز الى مكتبه .. وتوالت تعليماته واوامره .. « يعتقل بابتست ويوضع فى زنزانة خاصة .. تشدد الحراسة وتمنع بالقوة تنقلات أهل الجزيرة بمفردهم أو مع دوابهم ، تعين قوة خاصة برياسة الرقيب فوجل للبحث عن البقرة فينوس ولو أدى الأمر الى تفتيش كل منزل وكوخ ، يستعجل تقرير الطبيب عن حالة المصاب جين ، ينذر قائد المدمرة « لوبوك » للاستعداد لأى طارىء ، وسأتولى الأمر بنفسي ولا أريد أن تصل الى جيرونس أية معلومات عن هذا الذى حدث اليوم ، حتى أعد التقرير الشامل عن الحادث ونتائجه بنفسي ، وستكون قراءته هناك مشوقة . والآن .. الى بالكاهن ..

وفى خطوات ثابتة قوية .. دخل الكاهن ـ وبلا مقدمات ـ بادره الكابتن وايز يقول :

ـ منذ أقل من ساعة سألتك عن معلوماتك عن مس فالين فامتنعت عن الاجابة .. والآن .. هل تعرف شيئا عن مكان البقرة فينوس ؟ .

وحين تبين الكاهن أن هذا الأمر قد انكشف أيضا سقط قلبه وكاد ينهار . ولكنه تمالك نفسه وهو يرى الظلام قد أسدل

صدره ، والوقت والظلام ـ في مثل هذه المواقف ـ عادة ما يكونان أكثر من صديق ، والعمل على كسب الوقت بالتمادى فى التضليل لا شك سيعاون مس نيكول ورفاقها .

وفى هدوء رفع الكاهن رأسه وهو يقول :

ـ من أين لى أن أعرف شيئا عن هذا الموضوع وأنا هنا ـ فى القصر ـ منذ ساعات ..

ثم توقف قليلا ونظرة التشفى واضحة على عينيه قبل أن يقول :

ـ اليست فى طريقها الآن الى المانيا .. كما أمرتم يا سيدى القومندان .. لابد أن بابتست قد أطاع الأمر ونفذه بلا تردد ، فقد نقلت اليه ـ بنفسي ـ أوامركم هذه .. وهو لا يتردد فى تنفيذ أوامرى ..

ـ يسعدنى أن تعترف بهذا .. صديقك وشريكك ينفذ تعليماتك .. بل ولا يتردد فى تنفيذها .. لقد حاول ان يلحق بالفوهرر العظيم أكبر اهانة اذ يستبدل بفينوس بقرة أخرى ملطخة بالأصباغ .. ولكنه فشل طبعا ..

وفى سخرية تابع وايز حديثه قائلا :

ـ لقد انتهت مسرحيتكم الهزلية ايها الراعى وأسدل الستار عليها .. لو أن صديقك بابتست هذا يستحق ثمن رصاصة لكانت جثتـــه الآن طعاما للديدان .. ولـكنه لا يستحق ، وعلى ذلك فسيمضي ما بقى فى عمره من أعوام أو أيام فى معسكر للاعتقال .

وانحنى وايز فى سخرية وهو يقول :

ـ فى صحبة الأب راعى ارمورال .

وفى هدوء أجابه الراعى يقول :

ـ سيدى القومندان .. ارجو أن تتأكد من أن البقرة «هيزيت» لا تقل أصالة عن البقرة فينوس ، فهى من سلالة تجرى فى عروقها دماء ملكية ..

فقد وايز سيطرته على نفسه وصرخ في وجه الراعي يقول :

ـ اخرس .. لا تهمني سلالاتكم الملكية .. أريد فينوس .. اين فينوس ؟ .

وتمالك وايز أعصابه قليلا وهو يقول :

ـ دارت اليوم أحداث عجيبة ـ تعرفها تماما أيها الأب ـ ولا يخالجني أي شك في أنها كلها مرتبط بعضها ببعض . كما أن العقل المدبر فيها واحد لم يتغير . سينجلي الأمر في خلال ساعات قليلة ، وعندئذ سيتم الفصل الأخير من هذه المسرحية .. واخشى أن ينتهي بكارثة تحقيق بأرمورال .. وعلى ذلك .. فستبقى هنا في القصر ، وستجدني طوع بنانك .. اذا أردت أن تفضي الى بشيء .. في أي وقت .. فالى اللقاء يا سيدى الراعي ..

ـ الى اللقاء يا سيدى القومندان ..

***

توالت طرقات خفيفة على الباب الخارجي لمنزل ليونيل .. فانتفضت نيكول وهمست تقول :

ـ ليونيل .. هل تسمع شيئا ؟ .

ـ انتظرى هنا وسأبحث الأمر بنفسي ..

وتقدم ليونيل نحو الباب على أطراف أصابعه ، على حين بقيت نيكول في مكانها بجوار فينوس ، ووصلت الى سمعها أصوات همس ثم فتح الباب .. وأخيرا هدأت أعصاب نيكول حين سمعت ليونيل يقول :

ـ انه صديق باعزيزتي ..

واندفع الفتى جورج الى الداخل ، واتجه الى نيكول وهو يقول ـ وفي صوته رجفة ظاهرة :

ـ مس نيكول .. علمت انك هنا .. أنت وفينوس . صديقك فالنتين مورلاند سيأخذني معه الى لندن .. ولكن الخطر يحيق بنا جميعا الآن .. خطر بالغ ...

فقاطعته نيكول تقول فى لهفة ظاهرة :

ـ ماذا حدث يا جورج ؟ »

ـ يقوم الالمان بتفتيش كل شبر فى الجزيرة بحثا عنك وعن فينوس .. يجب أن تذهبى وبسرعة »

ـ وكيف نفلت منهم ؟ »

واستغرق الطفل فى التفكير قليلا ثم قال :

ـ الرقيب فوجل يقود القوة القائمة بالتفتيش ، وهو رجل مخبول يسهل خداعه . سأحمله على الذهاب الى «باى دى اوندين» على حين تسلكين أنت وفينوس طريق «بوان دى جوا» .. هلا أسرعت ياسيدتى ..

ـ سأفعل .. عجل أنت أيضا وعد الينا سريعا .. »

ـ اطمئنى يا سيدتى .. فسرعان ما سنلتقى .. »

الفصل التاسع عشر

فى هذا الظرف الطارىء ـ بدا ليونيل فاليز وقد تغيرت طباعه وعاداته ، وتبدلت شخصيته ونفسيته ، وانقلب الى شخص مختلف تمام الاختلاف ، فحين تبادلت نيكول الراى مع الكاهن صباح اليوم ، لم يدر فى ذهنهما ، ولم يكن فى تقديرهما أن ليونيل هو الذى سيقود البقرة من منزله الى حيث ينتظرها القارب .

ـ نيكول .. افتحى باب الحديقة وانتظرى خروجى ومعى البقرة ثم أعيدى غلقه فى سكون كما كان .. أمازال فى الوقت متسع أمامنا ؟

ـ يرتفع المد بعد نصف ساعة تماما .

ـ فلنعتمد على الله اذن ـ ولنبدأ رحلتنا فورا .. أين ستلتقين بصديقيك ؟

ـ فى الدغل عند منحنى الطريق .

ـ يحسن ان تسبقينى اليهما حتى لا يظنا اننى الرقيب فوجل أو غيره فيتصرفا على غير مانشتهى .. واذا حدث ما يريبك فانذرينى بترديد صوت الضفدع كما كنا نفعل فى طفولتنا .

وانطلقت نيكول تتحسس طريقها فى الظلام فى وثبات تؤمن بها نفسها ومن يتبعها ، وكانت طوال الوقت تجاهد حتى تحتفظ برباطة جأشها وسيطرتها على نفسها وأفعالها وحين وصلت الى منحنى الطريق وقفت فى الظلام وهمست تنادى فالنتين فاسرع هذا اليها وتلقاها بين يديه وهو يقول :

ـ شكرا لله على فضله .. لماذا كان تأخيرك هذا ؟

فأشرق وجهها وهي تقول :

ـ وهل كنت أتأخر عنكما مهما كانت الظروف .. يؤسفني أن أقول أن أحداثا تجرى في الجزيرة ، وأن خطوتنا حتى الآن غير مأمونة .. فالألمان يشكون في أن شيئا ما وشيك الوقوع وأنهم يعلمون انني هنا في الجزيرة .. ولكننا ولا شك سنتابع الى النهاية .. ليونيل ابن عمي ـ قادم مع فينوس وسيكون هنا بعد لحظات قليلة ..

وتوقفت قليلا قبل ان تقول :

ـ أخشى اننا سنواجه الكثير من المتاعب الليلة .

ـ لايهم ، في مقدوري أنا والكس أن نتعامل مع الحراس ؟ ولن يصل القومندان ورجاله الينا بأي حال ، فستلهيهم المفرقعات

ـ فاتني أن أقول أن الفتى جورج ذهب الى الرقيب فوجل ليخبره أنه شاهدنا عند «باي دي لوندن» كمحاولة لتضليله عنا ، أتظن أنه سيفلح ؟

ـ الرقيب فوجل أم جورج ؟

ـ جورج بلا شك .

ـ انه شيطان في ثياب طفل .

وتوقفا عن الحديث حين تنبها الى وقع حوافر الدابة على العشب الجاف ، وفي لحظات كان ليونيل يقف معهم وما ان تم التعارف بينهم حتى سأله فالنتين قائلا :

ـ كيف حال فينوس ؟

ـ على خير حال ، ولكنني أخشى اننا سنواجه المشكلة بعد لحظات ، فسرعان ماسنستقبل مسافرا جديدا يصحبنا في رحلتنا .

ـ هل نجد مكانا مناسبا لها بالقرب منا .

ـ نعم . هناك مظلة على بعد حوالي مائة ياردة .

ـ فلنسرع الآن اذن ..

وفي هذه اللحظات كانت فينوس قد رقدت على جانبها فوق العشب ، وبدأت الجزيرة تستقبل مولودا جديدا .

***

كانت الداورية الألمانية متجهة نحو منزل كاهن ارموورال ، وعند السياج الخلفى للحديقة لمح الرقيب فوجل ـ قائد الداورية ـ وجها صغيرا يختفى خلف السياج .

وأمام باب الدار توقفت الداورية وطرق الرقيب الباب وحين افتحته زوجة الراعى بادرها يقول بصوت جاف :

ـ لدى تعليمات بتفتيش المنزل .

ولم ينتظر فوجل هو ورجاله ، واندفعوا الى الداخل يبحثون وينقبون .

وفي بهو المنزل ، بجوار الموقد ، رأى فوجل الطفل جورج يجلس في هدوء وهو يقلب صفحات احدى المجلات الهزلية .. فبادره يقول :

ـ منذ متى وأنت هنا أيها الرجل الصغير ؟

ـ منذ اعلان حظر «التجول» .

فابتسم فوجل وهو يقول مداعبا الطفل :

ـ يا لك من فتى مطيع .. اذن فأنت هنا منذ أعلن حظر « التجول » ؟

ـ ليس ذلك تماما ..

ـ اذن أين كنت ؟

ـ في الحديقة .

ـ في الحديقة فقط ، ألم تذهب الى أى مكان آخر ؟

ـ وهل تظنني أذهب الى أى مكان آخر .. هل انا ممن يضيعون الوقت سدى مثلما يفعل البعض .

ـ من تعنى يا بنى ؟

ـ أنت مثلا .. تضيع وقتك هنا عبثا فى البحث عن سيدة جميلة .. لن تجدها هنا .

فاتسعت حدقتا الرقيب ، ومال نحو الطفل فى هدوء وهو يقول :

ـ كيف تبادر الى ذهنك ياصديقى أننا نبحث عن سيدة ؟

ـ كيف ؟ أنت لا تعرفنى اذن .. جورج الذى يعرف الكثير .

ـ نعم .. نعم .. تعرف الكثير بلا شك . هل فى مقدورك اذن أن تخبرنى أين اجدها .

ـ بلا شك .. انها هناك عند «باى دى لوندين» .

ـ يا لك من طفل ذكى شجاع .. هل تصحبنى اليها ؟

ـ أنا . لا . يجب أن أتناول عشائى الآن .. لماذا لا تذهب بمفردك .. ستجد هذه السيدة هناك .. بلا شك .

ـ نعم سأذهب بلا شك .

وفى هذه اللحظة تقدم احد الجنود يدعو فوجل لأمر هام .. فذهب معه الى حيث أرشده الى صرة صغيرة فى حجرة النوم ، وجد فوجل بداخلها بعض الملابس الداخلية النظيفة وسروالا وقميصا وكيسا من الورق بداخله بعض شطائر الجبن واللحوم ، ومسدسا صغيرا مما يلهو به الأطفال .. وفى عناية أعاد فوجل ربط الصرة كما كانت وغادر الحجرة واتجه نحو الطفل يقول :

ـ سنذهب الآن الى «باى دى اوندين» واذا لم نجد السيدة هناك فساعود اليك وأقضم أذنيك .

ـ تأكد انك ستلقاها هناك .. وعلى كل فستجدنى هنا فى أى وقت .

وحين غادر فوجل ورجاله المنزل اتجه الى مساعده يقول :

ـ سنتقدم الآن من هذا الطريق فى اتجاه «باى دى أوندين» سأترككم بعد قليل وأعود الى هنا فى انتظار صديقنا الصغير ..

فلا يخالجنى اى شك فى انه سيقودنا الى السيدة التى نبحث عنها ..

وتحركت الداورية .. ومن خلف النافذة كان جورج يتابعها بأنظاره . وما ان اختفت فى الظلام وانقطع صوت اقدام الجنود ؛ حتى أسرع جورج الى حجرة النوم والتقط حاجاته وغادر المنزل الى الحديقة وعند بابها الخلفى وقف ينصت ويرقب المنطقة فى حذر حتى اطمأن الى خلو الطريق ثم بدأ رحلته الى «بوان دى جوا» وهو يشعر بالزهو والفخار .. والسعادة ...

وفى حذر وحرص خرج فوجل من مكمنه .. وتقدم خلف جورج وسلاحه فى يده على أهبه الاستعداد ...

***

اندفع جورج نحو نيكول .. وفى نشوة وزهو توجه اليها بالحديث يقول :

ــ لقد فعلت ماوعدتك به تماما .. نجحت فى خداع الرقيب فوجل ودفعه نحو «باى دى أوندى» يا له من غبى مغرور ..

واستدار الطفل بأنظاره نحو فالنتين وهو يقول :

ــ أهذا صديقك الذى شاهدته فى الصباح ؟

ــ نعم .. واسمه اليكس ..

ــ مسيو الكس .. يسعدنى أن التقى بك .. اسمى جورج ؛ وسأذهب معكم الى لندن .

ــ سيكون هذا من دواعى سرورى ..

واستدار الطفل نحو ليونيل يقول :

ــ أستذهب أنت ايضا ؟

وهنا علا صوت أجش ــ بدد سكون الليل ، واثار الذعر فى قلوب الجماعة الصغيرة وهو يقول :

ــ كلا مستر فاليز لن يذهب الى لندن ، بل لن يذهب اى منكم

الى لندن أو غير لندن ؟ استديروا نحو الحائط جميعا وارفعوا الأيدي .. واذا بدرت منكم أية بادرة فسأطلق النار في الحال »

***

كان ترولر لانجلي يقف على ظهر الناقلة البحرية ـ الى جوار ربانها ـ يرشده الى المكان الذي ستقف فيه .

ومن مؤخرة الناقلة كان يأتيهم صوت البحار الذي كان يقوم بقياس العمق ، وحين اشار الى أنه قد بلغ ثلاثة أمتار أمر الربان بايقاف الآلات وبقيت الناقلة تأخذ طريقها نحو الشاطىء ، بقوة الدفع التي كانت عليها ، وبتأثير الموج الذي كان يحملها حملا .. نحو الشاطىء ..

وحين توقفت الناقلة تماما ، غادرها لانجلي في سكون واتجه الى الشاطىء ..

الفصل العشرون

استند الرقيب فوجل على جانب الدغل وهو يقول :

ـ اذن فقد وجدنا كل ماكنا نبحث عنه .. السيدة الجميلة التى يسمونها مس فاليز .. «والفنان» الذى يقولون أنه ابن عمها والبقرة فينوس .. التى حاولوا أن يضللونا بغيرها .. والطفل الذى اعتقد أنه سينال منا ويخدعنا ..

وفى سخرية مرة تابع فوجل حديثه يقول :

ـ هرفاليز . . الن تقدمنا الى هذين السيدين الغريبين ..

ـ «مستر» . . وليس « هر »

واذ بدءوا يستديرون نحوه يحادثونه ويسخرون منه ، صرخ فيهم يأمرهم بالعودة نحو الحائط ويحذرهم الحديث معه أو فيما بينهم .. وتقدم فوجل يجردهم من سلاحهم ويلقى به بعيدا عنهم .. واذ وقعت عيناه على سلاح الطفل المعلق فى وسطه توقف يمعن فى الفكر قليلا ، ثم قال :

ـ تقديرا منى لشجاعة هذا الطفل ، سأترك له لعبته هذه .. والآن ، وقد جردتم من سلاحكم ، ففى مقدوركم الاستدارة نحوى اذا حافظتم على رفع الأيدى فوق الرؤوس .

واتجه فوجل بأنظاره الى ليونيل فاليز وهو يقول :

ـ هر فاليز .. سيكون بيننا حديث شائق .

ـ قلت أننى «مستر» ولست « هرا » .

ـ حسنا .. من هذه اللحظة ، حتى اللحظة التى سأراك فيها تتلقى بصدرك رصاص الجنود .. سأناديك بمستر .

ثم علت ضحكته وهو يقول فى سخرية :

ـ اتظنون اننى ساقودكم الى القيادة الآن وسط هذا الظلام الحالك .. هذه أمنيتكم التى تحلمون بها ولاشك حتى تتمكنوا من الهرب .. لست على هـذا القدر من الغباوة ، ستبقون هنا حتى يأتى أفراد الداورية ، واننى احـذركم اية محاولة قد تقـدمون عليها ..

ـ هل تستطيع مس فاليز والطفل ان يخفضا ذراعيهما ؟

ـ لا ..

وبدا صوت فالنتين باردا كالثلج وهو يقول :

ـ من المخجل ان جنديا مسلحا من جنود الرايخ العظيم ـ كما يقولون ـ يخاف امرأة عزلاء من أى سلاح وطفلا يحمل لعبة على شكل مسدس ..

وبقى فوجل على عنـاده لحظات قبل أن يتراجع عن موقفـه ويقول :

ـ لمس نيكول والطفل فقط أن يخفضا ذراعيهما ، ولـكننى احذركم جميعا اية حركة .

فأجابه فالنتين فى سخرية مرة يقول :

ـ لاشك انك ستنال ترقية استثنائية على هذا العمل البطولى ولـكننى أعترف ان هنـاك ما يحول بينك وبين الترقى الى رتبة الملازم ..

فصرخ فوجل يأمره بالسكوت ويحذره التمادى ..

ولكن فالنتين لم يتوقف ، بل تابع حديثه يقول :

ـ لو كنت من جنود العاصفة .. لاختلف الأمر ..

***

كان الكابتن وايز يجلس فى صالون قصر الحاكم على أحـد المقاعد الوثيرة ، وفى فمه سيجار احترق نصفه ، وفى يده كأس من النبيـذ شبه فارغة والى يمينه آلة تسجيل يستمع منها الى مقطوعة موسيقية محببة الى قلبه ..

وأمعن فى النظر قليلا فى ساعتـــه ثم رفع عينيه قليلا نحو الملازم مولر وقال :

ـ لقد تجاوزت الساعة الآن العاشرة .. هل من اخبار جديدة من الرقيب فوجل ؟

ـ لا يا سيدى ..

ـ انه لأمر غريب .

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ مولر .. أتعرف فيم افــكر ؟

ـ فيم تفكر يا سيدى ؟

ـ أعتقد أن مس فاليز هذه أرسلها الانجليز الى الجزيرة فى مهمة قصيرة .. فليس من المعقول أن تتوقع أن يبقى امرها مخفيا عنا فترة طويلة .

وانتفض وايز فجأة وهو يقول :

ـ لذا فلابد انهم قـد دبروا أمر عودتها ثانية الى انجلترا .. وما من وسيلة أمامها سوى .. البحر ، ولهذا فسيرسل الانجليز لها احدى سفنهم .

وابتسم وايز .. وهو يرفع كأسه نحو شفتيه ويقول :

ـ فلنشرب اذن نخب هذه السفينة ، التى ستنتظرها لوبوك على أحر من الجمر .

ـ ولــكن ..

فقاطعه وايز يقول :

ـ لقد فكرت فى الأمر من جميع نواحيه ، لا تخش شيئا فلن يرسلوا سوى سفينة صغيرة .. فمـا من سفينة كبيرة تستطيع الاقتراب من شواطىء الجزيرة الضحلة ، ولا أعتقد انهم تنبهوا الى وجود لوبوك .. ولــكننى لا اظنهم يهملون أمر الحراســة القوية الواجبة لمنطقة مثل منطقة الميناء .. فما من قائد يفوته هذا .

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ مولر .. لا أريد اغراق هذه السفينة .. أريد الاستيلاء عليها .. والقبض على من فيها أحياء ، ولهذا .. أمرت الا تفتح النيران على السفينة ، وأن تترك حتى تقع فى الكمين المعد لها »

ـ واذا قاومت السفينة وطاقمها ..

ـ لا مفر ـ حينئذ ـ من تدميرها .. واغراقها بمن عليها »

واستغرق وايز فى التفكير قبل أن يقول :

ـ الأمر الذى مازال يشغل تفكيرى والذى لم أستطع الوصول الى تعليل معقول له حتى الآن .. هو الدافع الذى يحمل مس فاليز على العودة الى الجزيرة .. ودخول عرين الأسد بمثل هذه الجراة .

ورفع كابتن وايز سماعة التليفون وطلب الاتصال بقائد المدمرة ليؤكد عليه ـ للمرة العشرين هذا المساء ـ أن يكون على أهبة الاستعداد للحدث المتوقع وأن ينفذ تماما ما أصدره له من تعليمات وأن يتجنب اصابة الباخرة الانجليزية .. ما لم تبد مقاومة يرى فيها خطورة على المدمرة .. أو الجزيرة .

ووضع وايز سماعة التليفون .. وتنهد فى ارتياح وهو يقول موجها حديثه الى مساعده مولر :

ـ ما علينا الآن سوى .. الانتظار »

وفى هذه اللحظة كانت عقارب الساعة تشير الى النصف بعد العاشرة ـ وكان هذا هو الوقت الذى حدده فالنتين موعدا لانفجار قنبلته الأولى التى دفنها فى «ميرميد بأى» قرب الساحل .. تتلوها بعد لحظات ـ قنبلة ثانية .. وثالثة .. ويشتعل معها حشد من السهام النارية .

وحين دوت أصوات الانفجارات ـ تهز أرجاء الجزيرة أصاب وايز ومولر ذهول مفاجىء وحين أفاقا الى نفسيهما انطلقا يعدوان الى الخارج ، فى محاولة لتعرف حقيقة الموقف ، والعمل على مواجهته بما تمليه عليهما واجباتهما .

***

وفى منطقة بعيدة من الجزيرة ـ كان يدور حديث آخر بين الرقيب فوجل وفالنتين ونيكول .. حين حاولت نيكول أن تقترب من البقرة لترعاها وترعى مولودهـــا فمنعها فوجل فى قسوة وخشونة ..

وتشعب الحديث بينهـم .. كل يعمـــل على كسب الوقت والسيطرة على الموقف ، فالنتين ينتظر لحظة الانفجارات المترقبة وفوجل يتوقع وصول باقى أفراد الداورية ..

ولما كانت الأمنية التى تمناهـــا فالنتين ونيكول فى الليلة السابقة .. مازالت تؤتى ثمارها حتى اللحظة ، ولما كان الحظ مازال حليفهما .. فقد دوت الانفجـارات مؤكدة انتصارها فى السباق العنيف الذى كان بينهما وبين موعد وصول الداورية .

وحين دوت أصوات الانفجارات اليه هادرة .. أدار الرقيب فوجل رأسه بسرعة نحو مصدر الصوت ، وكانت هذه اللحظات المفاجئة لفوجل .. هى ما كان فالنتين يأمله وينتظره ، وسرعان ما استغلهما حتى يملك زمام الموقف ويجرد فوجـل من سـلاحه تماما .. وتعود اليه السيادة والسيطرة ، وان كان ليونيل قد سبقه قليلا ، حين وجه لطمة قوية بيده الى وجـــه فوجل .. لخر بعدها

الفصل الحادي والعشرون

كان الكاهن ـ راعي أرمورال ـ يجلس على مقعده في احدى حجرات القصر ، وقد استغرق في تفكير عميق ، على حين أصابع يديه تعبث بقبعته المستديرة ـ في حركة لا ارادية ـ وعيناه تحدقان في سقف الحجرة ، كما لو أنهما كانتا تسيحان مع أفكاره .

وانتفض الكاهن فجأة على أصوات الانفجارات التي مزقت سكون الليل وهزت أرجاء الجزيرة وحين تمالك نفسه .. امتدت اصابع يديه ترفع ساعته الفضية من جيب صديره ، ثم أنعم النظر فيها قليلا ، وبدت على وجهه علامات الرضى والارتياح .. قبل أن يعيدها ثانية الى مكانها ..

ولم تمض لحظات حتى سمع وقع الأقدام التي كانت تهرول مسرعة في أنحاء القصر تتخطى درجات سلمه قفزا وتتلاشى كلها أو تكاد تضيع في صوت الكابتن وايز المنطلق في ثورة وغضب يحمل أوامره وتعليماته لمساعديه وجنوده ..

وكان الاندفاع والخوف والقلق والحيرة ، الذى انعكس على الجنود في أبهاء القصر وحجراته المختلفة ، ينعكس أيضا ـ بصورة مصغرة ـ داخل نفس الحجرة التي كان الراعي معتقلا فيها ، فقد أصاب الجندى المكلف حراسته .. ما أصاب زملاءه في الخارج ، فأسرع يشهر سلاحه ثم تقدم نحو الباب .. وتوقف ينصت قليلا ، ثم انطلق نحو النافذة يحاول أن يرى شيئا .. ثم أسرع نحو الرجل المسن الجالس على مقعده في هدوء وسكون ، ثم عاد الى الباب وفتحه وما أن خطا خطوات الى الخارج حتى أسرع عائدا وأغلق الباب خلفه ، كان مرتبكا .. حائرا .. لا يدرى أيبقى في مكانه ، أم يسرع نحو رفاقه ، لقد صاح القومندان يأمر الحرس بالخروج .

وكان هو أحد أفراد هذا الحرس ، ولكنه كان قد أمر بمراقبة هذا الكاهن و«التحفظ» عليه . ولكن ماذا في مقدور هذا الرجل المسن أن يفعل ، وماذا يخشاه منه ، على الجندى أن يطيع الأمر الأخير دائما .. نعم .. هذا هو ما يجب عليه أن يفعله .. واذ استقر أخيرا على أمر ، أسرع نحو الراعى يقول :

ـ عليك بالبقاء هنا ، لا تغادر الحجرة .. أهذا واضح ..؟

ـ نعم ..

ـ ابق هنا وسأعود ثانية .. بعد قليل ..

ـ لقد سمعت ما قلته .. اذهب، ولا تخش شيئا ..

وفى هذه اللحظة علا صوت قائد الحرس ينادى أفراده ويهدد المتأخرين منهم بأشد العقوبات ، فابتسم الراعى وهو يقول :

ـ يحسن أن تسرع يا ولدى ، حتى لا يصيبك أذاه ..

***

ـ ليونيل .. أبخير انت ؟

ـ نعم .. أظن ذلك ..

قالها وهو يدلك ما أصاب معصمه من رضوض وسرعان ما جفل وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن أضطررت الى ايذائه بهذه القسوة ..

ـ هذا أبسط مما كان يفعله هو .. لو أنه كان فى مكانك ..

ثم استدارت تسأل الكس .. الذى كان يحكم وثاق فوجل بحبل رفيع كان معه ..

ـ هل أصابته شديدة ؟

ـ « كمدات » شديدة فى أسفل الفك ..

وما أن أحكم وثاقه حتى بادره يقول :

لو علا صوتك .. فستنال من هذا السيد لطمة أخرى .. أقوى وأشد ، تخرسك الى الأبد .. وما من أحد هنا يريد لك هذه النهاية ..

ـ سنأخذه معنا ، ولا شك أن رحلة البحر ستعيد اليه رشده ..

وقدم الفتى جورج وفى لهفة ظاهرة أخبر القوم بوجود حارس

بجديد على الربوة القريبة من « بوان دى جوا » والتى لا تبعد عنهم كثيرا ، وحين سأله فالنتين هل فى مقدوره أن يراوغه وأن يفلت منه ، صاح الطفل فى حمية وحماس يقول :

ـ بلا شك •• أستطيع هذا وأكثر منه ، كما أن الرجل صديقى •• ويدعى جوهان •

ـ اذن عجل يا بنى •• وستجد فى ثنايا صخور « بوان دى جوا » ناقلة بحرية صغيرة ورجلا له لحية كثة سوداء الشعر•• خبره أننا قادمون •• وأننا ـ جميعا ـ فى طريقنا اليه ••

ثم استدار فالنتين نحو الك يقول :

ـ هل قطعت الاتصال التليفونى بين الحارس والقصر ••؟

ـ نعم ••

ـ جميل •• انطلق اذن يا جورج •• وبعد أن تقابل صديقنا عد ثانية الى الحارس واعمل على أن تشغله عنا حتى نتجاوزه تماما ••

واتجه فالنتين بحديثه نحو نيكول يقول :

ـ متى تستطيع فينوس السير ••؟

ـ الآن .. اذا تمهلنا قليلا فى السير ، واذا حملت مولودها فستتبعنا بلا توقف ••

ـ ولكنه حمل ثقيل عليك ••

فضحكت نيكول فى نشوة وهى تقول :

ـ ليس كما تقول تماما ، كما أننى سأكون سعيدة بحمله ••

ـ اذن فلنستعد للسير فورا ، وعليك يا الك أن تهتم بأمر فوجل •• اذا بدرت منه بادرة أد واجبك بلا تردد ، ويحسن أن تكون الاصابة فى القلب مباشرة ••

ـ اتسمع هذا أيها الرقيب ، أم انك لا تتلقى الأوامر الا من قائدك المخبول ••

وكان جورج قد اختفى تماما فى الظلام حين رفعت نيكول ـ

بمساعدة فالنتين ــ المولود الصغير واحتضنته بين ذراعيها ، وتقدمت الجماعة ..

وما أن شعرت البقرة « فينوس » بمولودها يحمل بعيدا عنها حتى أسرعت تقف على أقدامها وتسير خلف نيكول ..

وخلف البقرة بدأ الرقيب فوجل يتقدم ــ وفوهة سلاح الرقيب الكسندر ملتصقة فى ظهره ــ وفى صوت واهن ضعيف همس يقول :

ــ الى أين ستذهبون بى ..؟

ــ الى لندن .. سنقدمك الى صديق عزيز يدعى « العم جورج » ، سيسعده بلا شك أن يتعرف بك وأن يستمع اليك ..

***

وسلك جورج طريقا ملتويا حتى تجاوز الحارس وانطلق نحو الشاطىء الصخرى يبحث عن القافلة وعن الرجل الملتحى ..

وعلى صوت النداء الهامس ، خرج ترولر لانجلى من مخبئه وسلاحه فى يده ، وحين رآه الطفل همس يقول :

ــ معذرة يا سيدى ، ألك لحية كثة سوداء .. ؟

ــ نعم يا بنى وأنت ألك بقرة تنتظر مولودا .. ؟

فأسرع جورج يندفع عن ترولر ويقول :

ــ هل أنت مستر ترولر ..؟

ــ ألا ترى لحيتى .. من تظننى اذن .. هل جئت وحدك ؟ أين الرائد مورلاند ومس نيكول و ...

وقاطعه الطفل يقول :

ــ انهم جميعا قادمون .. سبعة ..

ــ سبعة ..!!

ــ نعم .. سبعة ، خمسة من الأشداء الأقوياء وطفلان ..

ــ بحق الشيطان .. من هم ..

ــ حين أذكر « الشيطان » يعاقبني جدى ، انه مدروه سيىء الخلق والسمعة .. وتوقف الطفل قليلا قبل أن يقول :

— مستر فالنتين ومس نيكول قادمان وبصاحبتهما صديقهما مستر السكس وكذلك الرقيب فوجل — وان كان قادما برغم انفه — وكذلك ستأتى فينوس ومولودها الذى ولدته منذ ساعة او أقل .. ولا تنسنى يا سيدى ، فاننى قادم معكم ايضا ، وكذلك مستر ليونيل ..

— ومن يكون هذا الملعون ايضا ؟ ..

— « ملعون » .. انها كلمة مكروهة لا يسمح لى جدى أن أرددها مستر ليونيل ليس كما قلت ، انه ابن عم مس نيكول ، ولقد ضرب الرقيب فوجل بقبضة يده ضربة كادت تطيح بفكيه ، سيدى أرجو الا تذهب .. انتظرنا فسرعان ما سنحضر جميعا ...

— وكيف ستحملكم هذه الناقلة ، انتم تحتاجون الى بارجة .. هل يوجد اى المانى بالقرب من هذا المكان ؟ ..

— نعم .. هناك أحد الحراس على هذه الربوة العالية ...

— اذن فسأذهب اليه لأحادثه قليلا ...

— لا .. ارجو يا سيدى الا تفعل .. انه رجل طيب يدعى جوهان ، اعطانى — منذ أيام — سيجارة ادخنها ، ولكننى لم أتحملها وشعرت بالغثيان ... مستر لانجلى .. أرجو أن تنتظر هنا .. فهذا ما قاله مستر فالنتين ... أن تنتظر هنا ...

واستدار ترولر ينظر الى البحر ، فأحس بما وراء الانتظار من اخطار وقدر ما قد يترتب على المجازفة التى سيقوم بها من كوارث .. ومع ذلك فقد قرر أن ينتظر ..

***

بينما الجماعة تسلك طريقها فى صمت وحذر ، همس ليونيل فى اذن فالنتين يقول :

— اتعرف انهم اعتقلوا راعى الكنيسة ؟ ..

— نعم .. وهذا امر مؤسف ، ولا اعتقد أن فى مقدورهم ادانته بشىء ...

ـ أتظن هذا ؟ .

وتوقف قليلا قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ـ أو تعلم أيضا أن بابتست قد قبض عليه متلبسا .. ومعه البقرة المزيفة .. لا شك أنه يواجه المتاعب الآن .. ولن يكون وحده، فستحيل الكوارث ـ بعد ذهابكم ـ بالكثيرين من سكان الجزيرة أيضا ..

ـ بعد ذهابنا ..!

ـ نعم .. بعد ذهابكم .. لقد عنيت ماقلت تماما ، فلن أذهب معكم ..

ومن ثغرة وسط السحاب الذى كان قد أخذ يتكاثف فى سماء الجزيرة ، أخذ القمر يرسل أشعته الفضية فأزال عن وجه الجزيرة هذا الشحوب الذى كان قد كساها ، واشرقت معالم وجه ليونيل أمام عيني فالنتين ، فميز عليها بوضوح وجلاء .. آثار ما كان يدور فى قلبه وفى نفسه من صراع نفسي طاحن ..

***

اندفع العريف ـ قائد الحرس ـ المعين فى منطقة « ميرميد باى » نحو الكابتن وايز ـ وقد تقطعت أنفاسه وكاد قلبه يتوقف من طول المسافة التى قطعها عدوا ـ وهو يقول :

ـ لا شيء ياسيدى القومندان .. لاشيء ، مجرد « عبوات » ناسفة أحدث انفجارها هذا الدوى المروع ..

ولم يستطع الكابتن وايز أن يتابع استجواب العريف ولا أن يستوضح منه ما أراده ـ فقد كان هناك من يعدو نحوه عدوا وهو قادم من اتجاه قصر الحاكم ـ يحمل اليه رسالة عاجلة تقول ان الحارس المعين فى منطقة بيتى جوان أبلغ اقتراب سفينة صغيرة من الجزيرة .. وأنه شاهدها تستدير وتتجه نحو «بواد دى جوا» وكانت المفاجأة التالية التى أبرزتها الرسالة أن الاتصال التليفونى مع « بواد دى جوا » قد انقطع ..

وعلا صوت وايز وهو يؤكد أن الأمور تسير كما توقعها تماما .. ويصدر أوامره بتجميع كل القوات فى منطقة « بوان دى جوا » وسرعة اعداد مصباح كاشف على الربوة المشرفة على هذه المنطقة ولم يفته أن يؤكد ضرورة احتلال الجنود لمواقعهم فى سكون كامل .. والا تفتح النيران أو يضاء المصباح الا بأوامر منه شخصيا ..

***

وكادت المغامرة تكتمل فصولا ..

كانت الناقلة تتراقص وهى ترقد بين أحضان ميـاه الخليج وتندفع مع الموج كالسكرى ذات اليمين وذات اليسار ، حين وصلت الجماعة الصغيرة الى حيث كانت تنتظرهم .. وحين وقعت أنظار فرولر عليهم أسرع نحو نيكول .. والابتسامة ملء وجهه — يحييها ويقول :

— الى بهذا يا سيدتى ..

ولكنها احتفظت بكنزها بين يديها وأسرعت نحو القـارب ثم استدارت ووقفت تنظر الى فينوس وتدعوها فى صوت رقيق وتشجعها على اتمام هذه الخطوات القليلة الباقية .. واستجابت « فينوس » أخيرا — بعد لحظات خوف وتردد — فتبعت مولودها ، وتوسطت معه الناقلة ..

ولم تمض ثوان حتى كانوا جميعا فى قلب الناقلة .. فأسرعت تشق طريقها نحو السفينة التى كانت تنتظرها وسط المياه العميقة

وتم كل هذا فى اللحظة التى بدأت فيها الأحداث تتوالى مسرعة فقد علا صوت يحذر ركاب الناقلة ويأمرهم بالعودة ، وانبعث ضوء الكاشف الكهربى يبدد الظلام الذى اختفت فيه الناقلة .. وعلى ضوء الكاشف رأى الكابتن وايز الناقلة تتابع طريقها نحـــو السفينة بلا توقف .. ومن منظاره المعظم شاهد فتاة تتوسط الناقلة تقف الى جوار بقرة .. والى يمينها كان يقف رجل كثيف اللحية يلوح بيديه مهددا ، وفى الجانب الآخر شاهد جنديا يرتدى زى الجنود الألمان يقف وسط رجلين وطفل ..

وما أن وصلت الناقلة الى جوار السفينة حتى تدلت منها رافعة قوية حملت الناقلة بمن عليها .. الى ظهر السفينة ..

وصرخ الملازم مولر يطلب الاذن بفتح النيران فأمره الكابتن وايز بالانتظار وهو يقول :

ـ سرعان ما ستصل المدمرة لوبوك ..

وفي هذه اللحظة كان ربان السفينة قد أخذ أهبته للانطلاق ونادى مساعده يقول :

ـ هل ركبوا جميعا ..؟

ـ نعم ياسيدى .. جميعا ..

واستدارت نيكول تبحث فيما حولها واتجهت نحو فالنتين تقول :

ـ أين ليونيل ؟ ..

ـ لم يأت .. فقد فضل البقاء في الجزيرة .. ليواجه مع أهلها ما سيصبه الألمان عليهم من بلاء وويل ..

واستدار نحوها يلتقط يديها بين يديه ويقول :

ـ ألا ترين أنه قد فعل ما يمليه عليه واجبه نحو أهله وعشيرته

ـ بلى .. لقد اثبت انه حقيقة من أسرة فاليز ..

***

وحين شاهد الكابتن وايز السفينة وقد بدأت تتحرك . أمر بفتح دفعة واحدة من نيران رشاش الماكينة في اتجاه السفينة . وسرعان ما تساقطت الطلقات قريبة من السفينة دون أن تصل اليها فقد كانت قد انطلقت مبتعده ..

وصرخ وايز يأمر مساعده بضبط المسافة وفتح النيران من جديد دفعة واحدة أخرى .. ولكنه أسرع يأمره بالتوقف حين شاهد المدمرة لوبوك . تشق طريقها مسرعة نحو السفينة ، وحين شاهدها من كانوا على ظهر السفينة ، تملكهم اليأس وهم يرون كل آمالهم تنهار ، وجهودهم تضيع هباء .. فاتجهوا بكل حواسهم الى السماء يسألون أن تتدخل يد الله القوية .. الرحيمة ، وأن تنقذهم من هذا المأزق الذى يحيط بهم وأن تجنبهم الوقوع فى أيدى الألمان ..

وكانت السماء - كعهدهم بها - رحيمة شفيقة .. فسرعان ما عاد الامل الى نفوسهم وحلت السكينة فى قلوبهم وهم يسمعون الصوت الهادر الذى مرق فوق رءوسهم يمزق سكون الليل وينزل الرعب فى قلوب الطغاة ..

ومن وسط السحاب .. اندفعت مجموعة من خمس طائرات وغمرت بنيران رشاشاتها ظهر المدمرة ثم انطلقت تندفع مبتعدة ، واختفت وسط السحب لحظات ثم عادت - الواحدة تلوها الأخرى تندفع فى سرعة خاطفة لتلقى ما تحمله من مقجرات فوق سطحها .. وتتساقط القنابل كرذاذ المطر فوق المدمرة وحولها ، وتتوالى الانفجارات فوق السطح ، وتهتز المدمرة وتتمايل فى عنف وشدة . لا تدرى الى أى جانب تميل ، حتى تتخذ قرارها الأخير .. فيزداد ميلها نحو الجانب الايمن .. ولا تمضى لحظات معدودة حتى تكون نهايتها قد سطرت فى قائمة خسائر الحرب الفادحة .

الفصل الثاني والعشرون

اتجه الكابتن وايز ـ في تثاقل وكآبة بالغين ـ نحو منزل ليونيل ڤاليز ، وبغل وغيظ دفع الباب بقدمه فانفتح على مصراعيه ، وتابع سيره نحو الداخل ..

وفي الحجرة التي كان ليونيل قد أعدها مرسما له ـ التقى وايز بليونيل .. وكان يقف أمام احدى لوحاته في هدوء ورباطة جأش ، «وفرشاته» في يده يضفي بها بعض اللمسات على لوحته . وحين توقف الكابتن وايز على بعد خطوات منه ، استدار ليونيل برأسه قليلا وهو يقول :

ـ أسعدت صباحا ياسيدي القومندان .

واذ لم يتلق ردا على هذه التحية ، تابع عمله في سكون ومضت دقائق كانت تبدو ثقيلة طاحنة ، قبل أن يخطو ليونيل خطوة الى الخلف وينحني برأسه قليلا وهو يمعن في النظر الى لوحته من زواياها المختلفة ، ثم يتوقف ويضع « فرشاته » وأدواته على المنضدة القريبة ويستدير نحو وايز .. وفي براءة وبساطة يقول :

ـ كنت أعمل في هذه اللوحة منذ فترة طويلة .. اسمها « الكوبري » .. ويسعدني انك لم تشرفني بزيارتك قبل أن أنهي عملي فيها .

وحاول وايز أن يتمالك أعصابه ، وأن يتظاهر بالهدوء والسكينة ـ كما كان ليونيل يفعل ـ ثم قال :

ـ ليس تماما .. أتدري ماذا حدث الليلة ؟

ـ ليس تماما .. كل ما أعرفه انهم وصلوا الى الناقلة .

ـ الا تعلم أن الطائرات قد اغرقت المدمرة لوبوك ؟ .

فتظاهر ليونيل بالأسى والأسف وهو يقول :

ـ أحقيقة ما تقول ؟ انها لخسارة فادحة ! هل غرق أو أصيب أى من البحارة ؟

ـ لقــد التقطنا جثث سبعة من الجنود وضابطين ولا ندرى مصير الآخرين .

ـ كم يؤسفني هذا .. أرجو أن تثق بما أقول يا سيدى .. فلست ممن يميلون الى العنف .

وجالت أنظار الـكابتن وايز فى أنحاء المرسم وشاهـد روث البقرة وسط ما تخلف عنها من ماء وبقايا طعام فتملكته الدهشة واستدار يواجه ليونيل ويقول :

ـ اذن فقد كانت فينوس تختفى هنا .

ـ نعم . لقد جئنا بها الى هنا ، انا .. وابنة عمى نيكول .. نعم .. أنا ونيكول فقط ، وليس لأى مخلوق آخر أى دخل فى هذا الأمر ، يجب أن تعـرف هـذا تماما ، وأن تثق بما أقول : ليس للراعى أو لبابسنت .. أو لجين .. أو أى شخص آخر من سكان الجزيرة .. اية صلة بكل هذا الذى حدث .. صحيح أن الطفل جورج .. حفيد الراعى .. كان له دور معنا ولـكنه غادر الجزيرة مع نيكول ورفاقها .

وبصعوبة تمالك وايز نفسه وكظم غيظه وهو يقول :

ـ أتريد أن أصدق أنك وحدك المسئول عن كل هذا ؟

ـ نعم . من بين أهل الجزيرة المقيمين فيها الآن .. أنا وحدى المسئول .

ـ مستر فاليز .. لـماذا لم تصحبهم الى لندن ؟

ـ كان من المحتم أن يبقى هنا من يوضح لك الموقف ويذكر لك الحقيقة .. حتى لا يتحمل سكان الجزيرة وحدهم مغبة ما حدث وهم لا ناقة لهم فى الأمر ولا جمل .. هذه طبيعة الحرب ياسيدى لا ينـــال المذنبون ابدا جزاءهم .. بل الأبرياء هم الذين يتحملون

وحدهم ويقاسون ؛ ويحدث هذا دائما ، حين يفقد الناس ايمانهم بالله وبالسلام وبالانسانية ويسعون خلف الشيطان يشبعون رغبته في سفك الدماء وخراب الدور والديار .

وبقي وايز واقفا في مكانه حائرا مشدوها وفي ذهنه دوامة تعصف به .. ها هو ذا يرى نفسه .. بعد أن نال رتبة الكابتن وشرف الخدمة في آلاي البانزر التاسع ، واختير حاكما مطلقا على ارموزال لكفايته وقدرته وشجاعته وبسسالته .. يقف الآن ينتظر مصيره ، هل هنساك مصير آخر سوى التجريد من رتبته العسكرية والطرد من الخدمة ان لم يقدم للمحاكمة أمام مجلس عسكري عال .. وكذلك يقف ليونيل فاليز .. الرجل البسيط الصادق الذي ينتظره مصير رهيب على أيدي رجال الجستابو .. ما املهما في الحياة بعد الآن ، ماذا ينتظر وايز من الألمان وهو خير من يعرفهم ، وماذا يتوقع منهم هذا الغريب عنهم ، هل هناك سوى العذاب والموت .

وانتفض فجأة ، حين بدرت الى ذهنــه وسيلة الخلاص ؛ استدار نحو ليونيل يدعوه الى النــافذة ويطلب منــه أن يرقب الطريق في حرص وعناية .

كان ليونيل – في طفولته وشبابه – يخاف الموت ويخشاه ؛ حتى أصبح هذا الشعور هو العامل المسيطر دائما على كل اموره وتصرفاته .

ولكنه الآن .. برغم أنه على ثقة تامة من أن الموت يتربص به وأنه سيلاقيه لا محالة اليوم أو في الغد أو بعد قليل .. فقد توجه نحو النافذة وهو ينظر الى الأمام فقط ، حيث يرى ما في الجزيرة من جمال ويشاهد المعالم التي امتزجت في ذهنه بذكريات طفولته وشبابه وتابع أمواج البحر التي حملت نيكول .. ابنة عمه وحبيبة قلبه وأمله الذي كان يعيش من اجله .

ودقت اجراس ساعة برج الكنيسة ، ودوت طلقات الرصاص وعند النافذة سقط ليونيل وفي وسط الحجره سقط وايز .

فقد كان هـــذا هو الحل الذى رأى وايز أن فيه الخلاص له ولهذا الرجل .

***

وأسدل الستار ثانية على الجزيرة ، وطواها الظلام من جديد .

وجاء اليوم الذى حمل معه نسمات الحرية الى سكان جزيرة ارمورال ، وعاد السوزاريان وعادت نيكول .. واجتمع مجلس البلاط ، ولم تمض شهور حتى كان الميدان المواجه لقصر الحاكم قد توسطه نصيب صغير نقشت عليه عبارة « بسيطة » تقول :

« لذكرى ليونيل فاليز .. البطل الشهيد »


الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

مجلة الإذاعة والتليفزيون

مركز الإشعاع الثقافي في العالم العربي من القاهرة



نيويورك
لندن
الجزائر
بيروت
طرابلس
بغداد
الخرطوم
الاسكندرية
القاهرة

يصدر عنها

مذاهب وشخصيات — من الشرق والغرب — كتب سياسية

اخترنا للجندي — اخترنا للطالب

دراسات اشتراكية — رسائل جامعية





